



— روايات مصرية للجيب —

هسى فى هسياتى

زهور
ه



Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الجديدة
للطباعة والنشر والتوزيع
بالتعاون مع مؤسسة الأمل للثقافة والفنون

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبإبتعاده عن
الأنانية والرغبات والشهوات ، هو أعظم شئ خلقه الله في
هذا الوجود !!

وفي هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية
والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسحر بمشاعرنا ..
نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستشق
عبرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..
وفي كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننقل
من زهرة إلى زهرة .. في بستان ملؤه جمال المشاعر ..
ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ - جزء من الحلم يتحقق ..

صديق العزيز (رأفت) .. سألتنى مراراً عن قصتى مع
تلك السيدة ، التى استطاعت أن تنتشلنى من وهدة اليأس
وتدفعنى إلى ذروة النجاح .. وأن تحيلنى من إنسان ضائع
يائس محطم ، اسودت الدنيا أمام ناظره ، وتلوّنت بأصباغ
شديدة القتامة .. إلى آخر ناجح متفوق ، يقبل على الدنيا
من جديد بإصرار وإرادة ، جعلت منى أحد مشاهير هذا
المجتمع .

وأذكر فى هذه المناسبة عبارتك التى لا أنساها قط ..
إن هذا التحول الذى أحدثته فى حياتى « جعلها أشبه
بربان مقتلر ، وسعه أن يقود سفينة محطمة ، ليجتاز بها
بحار اليأس ، راسياً بها إلى مرافئ الأمل والنجاة .. »
لأنها إحدى عباراتك الأدبية البارعة التى تمجيد صياغتها .
لكن صدقنى حين أقول إن كل ما تستطيع أن
تصوغه من عبارات ، لا يكفى للتعبير الصادق عن هذه
السيدة التى عرفتها ، أو يوفىها حقها ..

وربما أن إلحاحك المستمر في معرفة تفاصيل قصتي
معها مردّه إلى أنك قد شعرت بحاستك الأدبية المتميزة ،
أن تلك القصة تصلح لأن تكون مصدراً لإلهامك الروائي ..
وأنك تستطيع أن تنسج منها خيوطاً لإحدى رواياتك
القادمة ..

ومن أجل هذا كان ترددي وهروبي المستمر من
كشف حقيقة تلك القصة ، برغم إلحاحك المتواصل ..
فقد كنت أشعر دائماً أن هذه القصة لا تصلح قط
للمزايدة الروائية ، ولا لإضافة بعض التفاصيل الخيالية
التي لا بد أن يضيفها الكاتب لتلك الشخصيات الواقعية
التي تكون مصدراً لإلهامه .

فقصتي لا تصلح إلا لأن تروى كما هي .. دون
إضافة أي تفاصيل ، أو أي مزيد من خيال الكاتب .
إن ما ينقصها فقط هو دقة التعبير .. أو بمعنى آخر
التعبير الصادق الأمين عن تلك المشاعر والأحاسيس ،
والعواطف النبيلة ، التي عشناها في تلك الفترة التي
قضيناها معاً ..

وبما أنك قد وعدتني - وأنا أصدق هذا الوعد -
بأنك لن تكتب عن هذه القصة ، وأن تفاصيلها لن تتعدى
كليتنا .. فسوف أروى لك يا صديقي قصتي معها ،
وما أحدثته هذه الإنسانية في حياتي .

لقد بدأت هذه القصة بعد هجرتك إلى كندا منذ
سنوات طويلة مضت .. وإن كانت مقدماتها قد بدأت
قبل ذلك بكثير .

بدأت منذ ارتباطي بالإنسانية الأخرى التي كانت
- وقتئذ - تمثل بالنسبة لي صورة حية رائعة للصدق
والحب والإخلاص .

الصدق والحب والإخلاص ١١ مشاعر وأحاسيس
لم تكن سوى صورة وهمية نسجها خيالي وحده .. وعاشها
قلب مخلوع لرجل غررت به عواطفه ، فأعمت عينيه
عن الحقيقة برغم وضوحها .

بدأت القصة منذ ارتباطي بـ (كريمة) .. وأنت تدرك
جيداً ماذا كانت تمثله (كريمة) في حياتي .

لقد كانت الحلم الذي تفتحت عليه عيناى مذ كنت طالباً فى سنواتى الأخيرة بالجامعة .

حلم شاب لا خبرة له ، ولا تجربة ، لم يسبق له العوم فى بحار الحب وأمواجه بكل ما كان يصوره خياله البرىء عن هذه البحار من مهر وعموض ، وبكل ما تحمسه أمواجه من مشاعر متناقضة ، تمثل فى خياله أروع سعادة يمكن أن يعرفها البشر ، وأعظم شقاء يمكن أن يكابله .. لم يكن فى حياتى أيامها سوى الدراسة والرغبة الجارفة فى النجاح والتفوق .

وكانت كتب القانون هى شركاؤك الوحيدون فى صداقتنا الحميمة إلى أن عرفت (كريمة) .. وعرفت معها تلك المشاعر المجهولة التى لم يجربها قلبى من قبل .

ولم يعد النجاح والتفوق يمثل بالنسبة لى هدفاً فى حد ذاته ، قدر ما أصبح بالنسبة لى وسيلة .. وسيلة تقربنى من الاقتران بهذه الفتاة التى عرفت معها - لأول مرة - معنى الحب .

وصارت (كريمة) هى كل شىء فى حياتى .

أقبلت على حبها بمثابة ساذجة ، ورومانسية شاب عديم الخبرة ، لا يعرف من الألوان إلا الأبيض والأسود .. فلم تستطع عيناى أن ترى تلك الجوانب الرمادية التى تكمن فى شخصية هذه المخلوقة .. هذه المخلوقة التى كانت أكثر واقعية فى تعاملها مع عصرها .

ذلك العصر المادى الذى أصبح لكل شىء فيه ثمنه حتى العواطف والمشاعر .

ولأن الله خلقنى إنساناً حساساً عاطفياً بطبيعته ، يتعامل مع ما يثور حوله من خلال مجموعة من القيم والمثل ، والمبادئ التى ترسخت فيه ، وأصبحت جزءاً من تكوينه .

فلم أستطع أن أفسر هذه النظرة التطلعية برغم وضوحها فى (كريمة) .

بل ربما كنت أدارى هذا التفسير - برغم إدراكى له - وأتعمد عدم الفهم حتى لا أشوه تلك الصورة

الوهمية التي نسجها خيالي حول الحب والصدق والإخلاص
التي توهمت أنها تملأ كيان هذه المخلوقة .

إلى أن تخرجنا ، وبدأت أشق طريقى للنجاح فى عالم
المحاربة .

وتحقق جزء من الحلم ، الذى سمعت من أجله ..
خطبت (كريمة) وشعرت أن الحياة قد بدأت تقبل
على بكل بهجتها وسعادتها !!



***** ١. *****

٢ - صراع بين اتجاهين ..

صديق العزيز (رأفت) .. معذرة إليك .. دعنى أتوقف
عن الاسترسال لحظة .. فكلما انتهى تفكيرى إلى ما سأسرده
عليك ، أشعر حقيقة أن قلبى ينزف ..

ف ذات يوم كنت جالساً فى الكازينو المطل على النيل
فى انتظار (كريمة) ..

وطال انتظارى فى هذا اليوم ، فقد تأخرت عن
موعدى على غير العادة ، إلى أن حضرت أخيراً .

ابتدرتنى قائلة وعلى وجهها تغير أقلقنى :

— مساء الخير يا (مدحت) .

أجبتها وأنا مترأوح بين الغضب والقلق :

— مساء الخير يا (كريمة) .. ماذا أخرك كل هذا

الوقت ؟

علا صوتها على غير العادة حين قالت :

— ليس المهم هو ما أخرنى .. المهم أننى قد أصبحت

فى موقف حرج للغاية أمامهم فى المنزل .

***** ١١ *****

خطوبتنا طالت .. وأنت ما زلت واقفاً مكانك ،
لا تتحرك إلى الأمام خطوة واحدة .

قلت وأنا أحاول السيطرة على صوتي :

— وماذا في وسعي ولم أفعله ؟ .. أنت تعرفين أنني
ما زلت محامياً مبتدئاً .. لقد انتهيت من فترة التمرين منذ أشهر
قليلة ، ولكني بدأت أضع أقدامي على الطريق .
إن الأستاذ (فوزي) يتنبأ لي بمستقبل باهر في عالم
المحاماة ، ويقول لي إنني أمتلك استعداداً طيباً للغاية ، لكي
أكون محامياً مرموقاً

قاطعتني قائلة :

— هراء .. كل هذا محض هراء .. أنتعرف كم من
السنوات يتطلبها محام مبتدئ مثلك ؛ لكي يفتح لنفسه
مكتباً يدر عليه دخلاً محترماً ؟

وكم من السنوات الأخرى التي يستطيع خلالها تكوين
نفسه .. أن تكون له شقة مناسبة .. وسيارة ... إلى غير
ذلك من متطلبات الحياة الأساسية ؟

ألا تنظر إلى صديقك (صلاح) ؟ ألا نرى أنه خلال
العامين اللذين أضعتهما في التمرين بالمحاماة ، أصبح يمتلك

شقة في الزمالك وله بدلاً من السيارة ثلاث ، ودخل
ثابت يزيد على ثلاثة أضعاف دخل ذلك الأستاذ الذي
تعمل في مكتبه ؟

قلت وأنا أغالب انفعالاتي :

— لا تنسى أن (صلاح) لم يأت بكل ذلك من
فراغ .. إن والده يمتلك شركة للتصدير والاستيراد متعددة
الفروع ، في أجزاء مختلفة من العالم ، وقد جعل ابنه
شريكاً له بنسبة أربعين في المائة ، مما تدره هذه الشركة .
أما أنا فلم أولد وفي في ملعقة من ذهب مثله .

قالت وفي صوتها حدة :

— إنني لا أطلب منك أن تكون مثله .. لأنك مهما
حاولت فلن تستطيع ، ولكن على الأقل حاول أن تستفيد منه .

لقد عرض عليك أن تعمل معه في فرع الشركة في
الخليج .. ولكنك رفضت بكل إباء ، وبدلاً من أن
تشكره قدمت له دروساً في الإخلاص للمهنة ، وعشقك
للقانون ، ورسالتك نحو العدالة .. إلى آخر هذه الدروس
العقيمة المكررة ، التي لا تفتح بيتاً ، ولا تقيم حياة .

— (كريمة) ، أنت تعرفين أننى أحب الحمامة ،
وأجد نفسى فيها .

إننى لم أنجح وأتفوق ، وأنكبّ الليالى على دراسة
كتب القانون ، لكى أعمل فى النهاية عملاً تجارياً لا أفهمه .
— و (صلاح) .. ألم يكن زميلك فى هذه الكلية التى
نجحت ، وتفوقت فيها ؟

ربما لم يكن ناجحاً ومتفوقاً مثلك فى دراسته ، ولكن
المهم أنه أصبح إنساناً ناجحاً ومتفوقاً فى عمله .. ذلك العمل
الذى تنبذه مدعياً عدم فهمه .

— لا تنسى أيضاً أن الحمامة لها نجاحها المادى .. كما أن
لها قيمتها الأدبية .

— نعم .. ولكن ذلك النجاح المادى يتطلب وقتاً طويلاً
حتى يتحقق . وقتاً يمكن اختصاره فى عامين فقط من
العمل مع مليونير مثل (صلاح) ..

— إن الحمامة مثل الطيب .. تحتاج إلى الممارسة .. وهذا
العمل الذى يعرضه على (صلاح) سيحرمنى بالتأكيد هذه
الممارسة ، ثم إننى اجتزت امتحان الماجستير ، وأعد نفسى

***** ١٤ *****

الآن للدراسة (الدكتوراه) فى القانون الجنائى ، وبدأت
أحضر الرسالة بالفعل .

— حسناً .. افعل ما يحلو لك .. ولكنى أحذرك أننى
لن أتحمّل الانتظار عدة سنوات أخرى .. وما لم تتحرك
سريعاً فى الاتجاه الصحيح ، فستصبح خطبتنا مهددة بالفسخ .
— (كريمة) .. ماذا تقولين ؟ هل أصبحت الأمور

بيننا مقصورة على الماديات فقط ؟ وأين الحب الكبير الذى
يجمعنا ، والذى كانت تذوب أمامه كل العوائق والموانع ؟
أنت تعرفين أن تأخير زواجنا يرجع إليك أنت
لا إلى .. فقد عرضت عليك أن نتزوج فى شقتى الصغيرة
بعد وفاة والدتى ، ولكنك رفضت ذلك .

— وهل تسمى ذلك الجحر شقة ؟ لا .. أنت تعرف
شروطى جيداً حول الشقة التى سأعيش فيها ، والحياة التى
أحياها ، وأنا لن أتنازل عن أى من هذه الشروط .

ثم قل لى .. أين الدخل الذى سيكفى متطلباتنا ؟ هل
تعتقد أننى أستطيع العيش معك بهذه الجنيئات القليلة ، التى
تحصل عليها من القضايا التى يمنّ بها عليك أستاذك ؟

***** ١٥ *****

— لقد تغيرت كثيراً يا (كريمة) .

— أنت الذى لا تعرف كيف تتعامل مع العصر الذى نحيا فيه .

(مدحت) .. لئننى ما زلت أحبك .. وهذا هو ما يجبرنى على الاستمرار معك حتى الآن ، برغم أفكارك العتيقة هذه .

ولكن عليك أن تتغير .. عليك أن تجارى هذا العصر ، ولا تنظر للأمور من جانب واحد فقط .

إن النجاح الحقيقى فى هذا العصر لمن يملك الكثير من المال والثراء ، وليس لمن يملك الكثير من تلك القيم البالية التى عفا عليها الزمن ، ويتشددق بها المتفلسفون ، مثل : الإخلاص للمبادئ ، والمثل العليا ، ورسالة العدالة .. إلى غير ذلك من الكلمات التى لا تصلح إلا للروايات المثالية .

كانت ألفاظها وتعاييرها تهاوى على كالمطارق ، بل كالطعنات .. فهتفت وقد احتقنت صمغى وفار دى :

***** ١٦ *****

— والحب .. والمواطف .. والمشاعر العميقة التى جمعت بيننا .. أليست كل هذه قيماً معنوية ، موجودة جنباً إلى جنب مع تلك القيم المادية التى عنها تتحدثين .

أجابت وقد اكتسى وجهها بتعبير لم أرتع له :

— إن الحب فى عصرنا هذا ، إذا لم تسنده الماديات لا يعيش طويلاً .

قلت وأنا أغالب مشاعرى وأحاول السيطرة على أعصابى حتى لا أنتهر ، فتصدر منى لفظة قد أندم عليها :

— برغم أننى غير مقتنع برأيك .. لكن ما المطلوب منى أن أفعله الآن بالتحديد ؟

لانت أساريرها ، فأدنت وجهها من وجهى ، وقالت فى اهتمام :

— لقد قابلت (صلاح) اليوم .. وعرضه بالنسبة لك لم يزل قائماً ، اذهب غداً وقابله فى الشركة .. قل له إنك موافق على العمل معه بالأجر الذى سبق تحديده .

— دعبنى أفكر .

***** ١٧ *****

- لا وقت هناك للتفكير .. إن أمامك فرصة يحلم بها الكثيرون ، إنها السبيل الوحيدة أمامنا يا (مدحت) ، لكي نسرع في إتمام زواجنا ، وتحقيق أحلامنا .
- تقصدين أحلامك .

- من المفروض أن أحلامنا واحدة .

- لقد كانت كذلك فيما مضى .. حينما كانت عواطفنا ومشاعرنا واحدة .. عندما كان للحب القيمة الأولى في علاقتنا .. إلى أن بدأت تلك القيم المادية تسيطر على تفكيرك تدريجياً .

- (مدحت) .. لا تفهمنى خطأ .. إن حبك لم يزل له المكانة الأولى في عقلى وقلبي .. ولكن هل تكره أن نعيش معاً حياة اجتماعية كريهة ؟

هل تكره أن تكون لك سيارة وشقة فى حى راقى ، وأموال فى البنك ؟

- ليس هناك من يكره ذلك بالطبع .. ولكنى أريد أن يأتى من خلال عمل الذى أحبه فى مساره المناسب ووقته المناسب ..

***** ١٨ *****

- هل سنعود إلى هذا الحوار من جديد ؟
- من أسف ، حتى لغة الحوار بيننا لم تعد مفهومة .
فليكن .. سأذهب لمقابلة (صلاح) غداً ، ما دامت هذه هى رغبتك ..
وأمسكت يدي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة ارتياح ، أو انتصار .. لا أدري ..

...



***** ١٩ *****

٣ - حققت رغبتها ..

في اليوم التالي ذهبت للقاء (صلاح) .. (صلاح)
صديق القديم رغم الاختلاف الكبير بيننا .. فهو دائماً
يحدد أهدافه في إطار المصلحة .. والغاية عنده دائماً تبرر
الوسيلة ، ويسمى هذه واقعية وفهماً للعصر .. نفس الأفكار
تقريباً التي تعتقها (كريمة) .

أما بالنسبة لي ، فالمبادئ دائماً كانت تحكمني ،
وتحدد لي إطار حياتي .. فالمصلحة من وجهة نظري
- إذا كانت على حساب الآخرين - لا تعدو أن تكون
انتهازية رخيصة .

والغاية إذا كانت شريفة ، فلا يمكن تبريرها إلا بواسطة
وسيلة شريفة ، ذلك هو فهمي الذي لا يتفق مع ذلك العصر ..
لكنني لا أفهم سواه .. واستقبلني (صلاح) بترحاب بالغ
قائلاً :

- أهلاً (مدحت) .. شرفت المكتب .. هل كان
لابد أن ألتقي بـ (كريمة) أمس حتى تأتي لزيارتي ؟

***** ٢٠ *****

- أهلاً بك يا (صلاح) .. لقد أخبرتني (كريمة)
أن العرض الذي قدمته لي من قبل لم يزل قائماً .. فهل
هذا صحيح ؟

وابتسم (صلاح) ابتسامة لم أفهم مغزاها .. أمي
ابتسامة رضا ؟ أم هي ابتسامة شماتة ؟ قائلاً :

- وأحلامك عن المحاماة ؟ رسالة (الدكتوراه) ؟
ورسالتك نحو العدالة ؟ إلى غير ذلك من الأفكار التي
كانت تسيطر على عقلك وتفكيرك ؟

- أنت تعرف أن (كريمة) هي أغل أحلامي .. بل
إنها الحلم الكبير الذي تتساند معه بقية الأحلام الأخرى .

إنني أشعر أن (كريمة) متضيق مني يا (صلاح) ..
فأفكارها أصبحت تختلف كثيراً عن تلك الفتاة التي عرفتها
أيام الجامعة .. وأنحشني إذا لم أتناوب مع هذه الأفكار
أن أفقدها ..

- لا تلمها يا (مدحت) .. فأنت ما زلت غارقاً في
الأحلام .. أما (كريمة) فقد استيقظت ورأت كيف

***** ٢١ *****

تدور الحياة حولها .. عاشت الواقع ، فلم تعد قادرة على
أن تعيش معك أحلامك المثالية ..

— إننى لا ألومها على ذلك .. فهى بنت عصرها ..
وأنا أفهم صعوبات هذا العصر ، ومدى قسوتها .

لكن لماذا نزيده صعوبة عندما نصرّ على أن نقفز بدلاً
من أن نخطو .. نحن الذين نزيده قسوة عندما نحول
الطموح المشروع بداخلنا إلى جشع لا حدود له .

إن (كريمة) تريد اختصار الزمن .. وترفض البدايات
البسيطة .. ترفض أن تحقق أحلامنا تدريجياً ، ونعيش لذة
الكفاح ..

وضحك (صلاح) قائلاً :

— آه .. هأنذا تعود مرة أخرى إلى الفلسفة ..
فلسفتك التى حاولت دائماً أن أفهم جدواها منذ أن عرفتك
في الجامعة ، فلم أستطع .

وابتسمت قائلاً بمرارة :

— ولن تستطيع يا (صلاح) .. فكلانا ينتمى إلى عالمه
الخاص .

— ومع ذلك فنحن أصدقاء .. أليس كذلك ؟ دعنا
نتحدث الآن حديثاً عملياً .

في الواقع .. إن العمل الذى عرضته عليك في العام
الماضى قد شغله غيرك الآن .. وهذا بسبب ترددك وعنادك .

إننى لا أهدف من وراء ذلك بالطبع إلى العتاب
أو التأنيب ، ولكن عليك أن تفهم فقط أن العمل المتوافر
الآن قد يكون أقل في قيمته من الناحية الأدبية عن العمل
الذى عرضته عليك من قبل ، وإن كان من الناحية المادية
لا يقل عنه كثيراً .

إنه على كل حال أفضل مما تحصل عليه من قضاياك
القليلة هنا .

— ومنى يمكننى تسليم هذا العمل ؟

— خلال أسبوع .. وأترك لى مسألة إجراءات
السفر .. ستعمل بأحد المكاتب في شركتنا بالإمارات ،
وسيكون عقدك لمدة سنتين قابلاً للتجديد .

- (صلاح) .. برغم كل ما آخذ عليك من مأخذ
إلا أنني ما زلت أعتبرك صديقاً يمكن أن أثق به .
رجائي الخاص أن ترعى (كريمة) في غيابي .
- اطمئن يا (مدحت) .. ستكون في رعايتي كما
لو كنت موجوداً تماماً .
- أشكرك يا (صلاح) .. وأشكر لك أيضاً الوظيفة .

• • •



٤ - صفقة رخيصة ..

وسافرت إلى الإمارات .. سافرت وصورة (كريمة)
وهي تودعني في المطار بدموع غزيرة ، لم أعرف وقتها
أصداقة كانت أم زائفة .. وبمشاعر دافئة لم أحظ بمثلها من
قبل - لا تبرح خيالي .

معلنة إليك يا صديقي .. لا أريد أن أطيل عليك
بتفاصيل قد لا تهلك كثيراً ..

ولكنك أن تتصور أن تكون مضطراً إلى التفتي في
عمل لا تميل إليه .. وأن يضطر رجل مثل أن يتطلع مبادئه ،
وهو بغض بصره عن عمليات تجارية مريبة ، يراها تلحور
أمامه ، بل يشارك فيها وهو على يقين أنها غير سليمة تماماً .
لقد أقنعت نفسي بأنني المخطئ ، والآخرين على صواب ،
وحملت نفسي على أن أعيش أسلوبهم .. حاولت أن أجعل
من نفسي إنساناً آخر غير الذي كنته ..

وكانت صفقة رخيصة من أجل إنسانة لا تستحق .

وعدت إلى القاهرة .. سافرت لألتقي وجهاً لوجه مع الحقيقة .. وكما كانت قسوتها على نفسي ١١
ليت الأمر اقتصر على غدر الحبيبة فحسب .. بل رأيت بعيني خيانة الصديق أيضاً .

فقد كان العريس الذي سيزف إلى حبيبة العمر هو نفسه ذلك الصديق الذي حملته أمانة رعايتها ، وحفظها لي حتى أعود .

ويا له من إخلاص ووفاء ١١ ويا لها من رعاية ١١
واندفعت وسط المدعوين في الحفل دون أن أدري إلى أين تقودني خطواتي .. حتى وصلت إلى مقعد العروسين .
وتلاقت النظرات ، وكل منها يحمل معنى مختلفاً .
ففي عيني تجسدت لوحة كاملة ، تنطق بكل ما يعتمل في نفسي من شعور بالغبن والخديعة ، والحزن والألم ، والغضب والصدمة .

وفي عينيها كانت تلك النظرة الحجة ، التي حاولت أن تخفيها دون أن تفلح .. فغلالة الحجل كانت رقيقة شفافة للغاية ، لم تفلح في أن تستر تحتها معالم الغدر والخيانة .
وتذكرت في هذه اللحظة ، كيف أن آدم هبط من

الجنة إلى الأرض بعد أن أغوى الشيطان حواء ، لتدفعه إلى قطف التفاحة .

وكما كانت هذه التفاحة ثمناً مادياً رخيصاً للخروج من الفردوس ١١

وها هي ذى حسواء أخرى تبيع نفسها للشيطان .. شيطان لديه كل الإغراءات المادية التي تتناسب مع العصر .. والتي ضحت من أجلها بفردوس الحب الذي يجمعنا .

وفي عيني (صلاح) لحت ذات النظرة الشامتة .. الشماتة التي تعبر عن الحقد القديم ، الكامن في نفسه نحوي ، منذ أيام الدراما .

لم أكن أجد تفسيراً لهذه النظرة من قبل ، ولكني الآن أدركت كنهها .. فقد رأيت ذات النظرة الحاقدة كثيراً من قبل .. رأيتها كلما تفوقت عليه دراسياً ، ورأيتها كلما تفوقت عليه أخلاقياً ..

لقد كان (صلاح) برغم كل ثرائه واستهائته بالتعليم ، والشهادات الدراسية يحقد على نجاحي وتفوقي .
وبرغم كل ما توافر لديه من نجاح مادي ، يشعر

بالنقص إزائي ، تمسكى بمجموعة من القيم والمثل لم تنهار
تحت وطأة الظروف وماديات الحياة .

وقد حقق انتصاره الأول على ، يوم ارتضيت الوظيفة
التي رفضتها منه من قبل .. واعتبر ذلك استسلاماً لمنطقه
الذي كنت أعارضه على الدوام .

والآن ها هو ذا يحقق انتصاره الثاني ، ويسلبني أعز
إنسانة عندي .

نظرات مختلفة في عيون مختلفة !! ولكن كلها تجتمع
في النهاية لتقدم تلك التراجيديا المعادة على مرّ العصور ..
تراجيديا الحبيب المخلوع ، والصديق الخائن ،
والحبيبة الفادرة .

وبصوت لا يعرف الخجل ، وجدت (صلاح) يقول لي :
.. أهلاً (مدحت) .. ألن تقول لنا كلمة مبروك ؟
لم أجبه ، فقد تجمدت نظراتي على وجه (كريمة)
التي كانت تطأطي رأسها إلى الأرض خجلاً .
وبقحة لا مزيد عليها مدّ يده إلى إحدى الصواني ،
ليأخذ منها كوباً من الشراب ، قدمه لي قائلاً :

— إذن تناول كوباً من شراب العرس على الأقل .
وبدون أن أدري وجدتني وقد انتابني حالة هستيرية
لم أستطع أن أسيطر عليها .

قذفت الكوب من يده ، ليسقط فوق ثيابه ،
وهجمت عليه ، وجذبتة من ياقة الجاكت الذي يرتديه ،
وأنا أهزه بعنف مردداً :

— خائن !! جبان !! نذل !!

لقد كانت هذه هي بداية انهيارى العصبي .. بدأت
منذ هذه اللحظة التي تعاظم فيها بداخلى الشعور بالغبن
والمرارة والخديعة .

ووجدتني أسقط تحت أقدام المدعويين الذين هاجموني
ليخلصوا (صلاح) من قبضتي

وكان آخر ما رأيته هو وجه (إبراهيم) ابن خالتي
الذي كان قد علم بمجيئى من السفر ، وتبعنى إلى هنا ،
بعد تأكله من حضوري ، رأيته يتدفع بين المدعويين
ليخلصنى من بين أيديهم .
وبعدها غبت عن الوعي تماماً .

ولم أدرك من الأيام ظلت فيها غائبا عن الوعي ..
ولكنني أعرف أنني في اللحظة التي استرددت فيها وعي
ظلت عدة أيام مدهولا فاقدا للذاكرة ١١

وعندما استعدت وعي من هذا الدهول ، واسترددت
ذاكرتي المفقودة وجدتي راقدا في غرفة صغيرة بإحدى
المصحات النفسية .

...



لقد أردت في اللحظة التي رأيت فيها (صلاح)
و (كريمة) ليلة عرسهما ، أن أبدو قويا متماسكا ، ولكن
عقلي وجسدي لم يتحملا قسوة الحياة وجرحها .

فأصابني انهيار عصبي ظلت أعالج منه ثلاثة شهور
داخل هذه المصحة .

وعندما خرجت منها كنت قد تحولت إلى إنسان آخر ..
فقد هجرت كل شيء .. عملي واهتماماتي .. آمالي
وطموحاتي .. وأسلمت نفسي إلى الوحدة والاكتئاب ،
بعد أن زهدت في كل ما في الدنيا عدا أحزانها ..

ولم أعد أرى من الحياة سوى ذلك الجانب المظلم
القاتم الذي ظلل حياتي بعد زواج (كريمة) من (صلاح) .
ومررت على شهور طويلة وأنا على هذه الحال ..
لم يكن يطمئن عليّ خلالها ، ويرعى شئونني فيها سوى
(إبراهيم) ابن خالتي ، الذي سافدني طوال هذه الحقبة ..
وطالما حاول (إبراهيم) أن يخرجني من حالة

الاكتئاب هذه .. وكمن مرة عرضني على أطباء نفسانيين
دون جلوسى !!

فقد أكد له أكثر من طبيب أنني بحاجة إلى علاج
نفسى طويل ، ورعاية فى إحدى المصحات النفسية ،
ولكنه كان يعرف أنني أرفض دخول مصحات نفسية
أخرى .

وكنيت أرى نظرة الإشفاق فى عيني (إبراهيم) وهو
يقول لى :

— (مدحت) .. إن الأطباء يؤكدون أن العلاج
بيدك .. فقط لو تحليت بقوة الإرادة .. عليك أن تخرج
من عزلتك ، واكتئابك هذين .. عليك أن تكون أقوى
من أحزانك .

وإذا لم تكن تريد أن تساعد نفسك .. فهناك بعض
المصحات النفسية التى بها من هم على استعداد لمساعدتك ،
وشحذ همتك وإرادتك ، حتى تصل إلى مرحلة الشفاء .
وكنيت أجييه وأنا زائغ النظرات .. شارذ الفكر :

— ولماذا العلاج والشفاء لأعود من جديد لأشارك فى
هذه الحياة الشقية ؟ . حياة الغمر والخيانة .. حياة يباع فيها

الحب ويشترى .. حياة يزيغ فيها الصديق .. ويداس
فيها الوفاء بالأقدام .. قل لى لماذا أشنى وأعالج ؟ لأشارك
فى حياة بشعة كريهة كهذه ١٩

— (مدحت) .. إنك لست أول إنسان تخونه امرأة ،
لقد حدث ذلك للكثيرين من قبلك ، وسيحدث للكثيرين
من بعدك .

ومسح ذلك فالحياة لم تتوقف ، ولن تتوقف ..
لقد طرح الكثيرون قبلك هذه الخيانات وراء ظهورهم ،
وبدعوا حياتهم من جديد بدعوا مع نساء أخريات أكثر
وفاء وإخلاصاً ، وحققوا نجاحاً باهراً فى حياتهم ..
لم يستسلموا مثلك ، ولم ينهاروا على هذا النحو .

إن الدنيا ليست بهذه الصورة البشعة التى تتصورها ..
وفى عالم الأصدقاء .. والنساء كما فى كل شئ آخر
يوجد الجيد والردى .. الصالح والطالح .. فلا يوجد
ما يدعو لأن تغلق حول نفسك هذه الدائرة السوداء .
وتسلم نفسك للوحدة والاكتئاب ، ليتحول الأمر فى
النهاية إلى حالة مرضية ، ليس لها سبب عضوى ، ولكن
سببها نفسى بحت ، بيدك العلاج منه .

أجبت وأنا أجول وجهي عنه :

— أتعرف أنك تصلح لأن تكون طيباً نفسياً ؟
إنك تشبه أولئك الأطباء الذين يجعلوننا نتمدد أمامهم ،
ثم ينزلون فوق رؤوسنا بمثل هذه الكلمات الرنانة عن
التفاؤل والأمل ، والثقة بالنفس وبالحياة .

كلمات .. مجرد كلمات يسهل ترديدتها .. ولكن الواقع
شيء مختلف تماماً .. لو عاش أحدهم مثلي يؤمن بقيمة المثل
والمبادئ ، التي تربي عليها طوال عمره مثلي .

لو أعطى أحدهم مثلي كل هذا القدر من الحب
والإخلاص والصدق لإنسانة لا تستحق كل هذا .

لو عرف أحدهم مثلي صديقاً بزن كل شيء — حتى
المبادئ — بميزان مادي رخيص ، ومع ذلك يؤمن بأنه
قد يفعل أي شيء إلا أن يخون صداقته .

مثالية ساذجة بلهاء !! ظلت طوال عمري أومن بها
وأعيشها ..

وفجأة .. بعد كل هذا العمر ، كشفت أنني كنت
الوحيد الذي لا أنتمي إلى هذا العالم .

***** ٢٦ *****

لقد كان (صلاح) صادقاً ومدركاً لعالمنا الذي
نعيشه ، وكذلك (كريمة) .. أنا وحدي الذي عشت في
غيبوبة طويلة .. غيبوبة غرسها في والدي طوال حياتي ،
وتأقلمت معها روي .. غيبوبة الصدق والقيم والمبادئ ،
في عالم لا يعرف الصدق والقيم والمبادئ .

وفي النهاية ترددون كلمات .. مجرد كلمات أنتم
أنفسكم تتركون أنها جوفاء ، ولا تساوي شيئاً في هذا
العالم الكريه .

أنا آسف يا (إبراهيم) .. ولكنني تعب .. تعب
للعناية .. ليس الأمر .. أمر صدمتي في خيانة صديق ،
وغدر حيية ، ولكنها صدمتي في نفسي .

أتعرف ما الذي أحسه لو فتحت شباكاً ، أو خرجت
إلى الشارع .. إنني أشعر بأن الجميع يسخرون مني ..
كل من يراني يضحك مني ، ويقول هذا هو الأبله ..
الساذج .. الذي يصدق الحب كما جاء في الروايات ،
والمبادئ كما يتشوق بها المتشددون .

وأحياناً أشعر أنهم يشفقون علي .. على قيمي البالية ،

***** ٢٧ *****

التي لم تعد تساوى شيئاً في أسواق هذا العصر .

إنني لا أريد أن أخرج إلى هذا العالم .. إنني أخشى
مخزيتهم ولا أريد إشفاقهم .

هل تفهم يا (إبراهيم) ؟ أنا لا أريد إشفاقهم .

وانخرطت في بكاء عنيف حار .

ورببت (إبراهيم) على كتي في أخوة صادقة وهو
يقول :

- ابك يا (مدحت) .. ابك إذا كان البكاء
سير يحك .. فلأنني أدرك جيداً ما يعمل في نفسك .

ولكن صدقتي الحياة ليست بهذه الصورة البشعة التي
تصورها « وكثيرون مرثوا بمثل أزمته ، وتخلصوا منها .

كل ما في الأمر أنك حساس بقدر زائد ، وهذا هو
سبب رد الفعل العنيف ، الذي أحدثه بداخلك زواج
(صلاح) من (كريمة) .. اسمع يا (مدحت) ، ما رأيك
في هذا الإعلان المكتوب في تلك الجريدة ؟

اقرأه بتأن ، وتمهل دون رفض مسبق ، وسوف أمر

***** ٢٨ *****

عليك في غد لأعرف رأيك .. وصدقني أنه يتناسب تماماً
مع حالتك ..

ووضع الجريدة أمامي على الصفحة التي فيها الإعلان ،
ثم تركني وانصرف .

لقد كان نص الإعلان كالآتي :

« دار القلوب المعذبة .. لقد أنشأنا هذه الدار من أجل
كل أولئك الذين عذبته الدنيا بمآسيها » فتركت بصماتها
المؤلمة عليهم .

إلى الذين يعانون الوحدة والاكتئاب والحزن
والمرض ، فلتلتقوا جميعاً في دار القلوب المعذبة «
ولتشابك أيدينا جميعاً ، حتى نهرب من واقعنا الأليم » .

كان إعلاناً غريباً ، لم أصادف مثله من قبل ..
وكانت شروطه مبسرة ، فلم يكن على الراغب في الالتحاق
بهذه الدار سوى تقديم طلب إلى صاحب الدار ، مرفق
به تقارير حول ظروفه النفسية وحالته المرضية ، ليقرر
صاحب الدار بعد دراستها ما إذا كان يوافق على انضمام
صاحب الحالة من عدمه .

***** ٢٩ *****

٦ - في دار القلوب المعذبة ..

وحلت حقية ثيابي ، ومضيت إلى هذه الدار ، وأنا
عازم على أن تكون مقراً لعزلي عن هذه الدنيا .

وهناك التقيت بصاحب الدار .. كان رجلاً يبدو في
الستين من عمره « شعره أبيض فضي ، وتعبيرات وجهه
مريحة هادئة .

كان من ذلك النوع الذي يبعث فيك الشعور
بالاطمئنان ، والأبوة الحنون .

استقبلني الرجل في مكتبه ، قائلاً بنبرات تنسجم تماماً
مع ذلك الوجه النوراني :

— إننا نرحب بك في دار القلوب المعذبة ، التي
ستصبح منذ الآن دارك أنت الآخر .

إنها كما ترى تقع في بقعة هادئة منعزلة ، حيث
الهدوء والسكينة ، تتبع لك الفرصة للتأمل والتصالح مع
نفسك ..

وبعد تفكير عميق أخبرت (إبراهيم) بموافقتي على
الالتحاق بهذه الدار .. وقام بتقديم الطلب الخاص بحالتي
إلى الإدارة موضحاً فيه الظروف النفسية التي مررت بها ،
ومرفقاً به الشهادات الطبية الخاصة بحالتي ، وتقرير المصحة
النفسية التي عولجت فيها من قبل .

وبعد أيام قليلة .. جاءني الرد بالموافقة على انضمامي
عضواً مقيماً بدار القلوب المعذبة ..



أجبت ، وقد ارتاحت نفسى بعض الشيء :

ح إننى أرجو ألا تكون مشابهة لتلك المصحات النفسية التى يوضع فيها المريض تحت الملاحظة والعلاج .

فحقى العلاج زهدته ، ولم أعد أريده .

قال ، والبسمة لا تفارقه :

— إنها بالفعل دار العلاج النفسى .. ولكنها لا تشبه تلك المصحات التى تعرفها فى شيء .

إن أسلوب العلاج هنا بسيط ، ويعتمد على إرادتك ، ورغبتك الشخصية فى الشفاء .

فإذا كنت تريد أن تستسلم لأحزانك ومعاناتك النفسية ، إذا كنت من ذلك النوع الذى يستعذب الألم ، وترى أن الغرض من مجيئك إلى هنا هو الرغبة فى الهروب بهذه الأحزان عن العالم الخارجى ، والعزلة بها بعيداً عن الآخرين ، فلن نجد هنا من يحاول أن يفرض عليك أى وسيلة من وسائل العلاج ، ولن نجد من يفتح عليك وحدتك وأحزانك .

***** ٤٢ *****

أما إذا كنت تبحث عن وسيلة للنجاة والهداية ، وتوافرت لديك الرغبة والإرادة فى اجتياز المحنة التى تمر بها ، فالعلاج هنا لا يعتمد على أطباء أو إخصائيين ، فكل من سوف اعتماده على ساكنى الدار أنفسهم .. إن كل من سوف تقابله هنا لديه آلامه وأحزانه الخاصة به ، فإذا احتجت أن تشكو همومك وأحزانك للآخرين ، فستجد منهم من يستمع إليك ، ويشاركك معاناتك ، وهذه إحدى وسائل العلاج هنا .

وإذا أردت بدورك أن تسهم فى الاستماع إلى هموم الآخرين وآلامهم ، التى قد تفوق أحزانك الشخصية ، فسوف نجد هنا الكثير من القصص التى تستحق أن تروى ، ولا تحتاج منك إلا إلى بضع كلمات من التشجيع والمشاركة ، وهذه أيضاً إحدى وسائل العلاج .

فالهدف من إنشاء هذه الدار ، أن يشارك الجميع فى مشاعرهم وهمومهم الشخصية قبل أن تكون مقراً للعزلة والراحة النفسية ..

***** ٤٢ *****

باختصار أن تكون أنت الطيب والمريض في آن
معاً ..

وفي النهاية ستجد أن المكان ليس أكثر من نادٍ يضم
أصحاب القلوب المعذبة التي أشقتهم الدنيا بمآسيها .

وستكشف في النهاية أن معاناتك النفسية كانت شيئاً
ضئيلاً للغاية ، عندما نستمع هنا إلى العديد من القصص
المختلفة ، التي يرويها أصحاب تلك القلوب .

قلت وأنا أهر رأسى في أسى :

— أرجوك .. إننى لا أريد من وجودى بهذا المكان
سوى الاغتراب عن هذا العالم بكل ما فيه .. لا أريد أن
أسمع أحداً أو أستمع إلى أحد .

— كما قلت فإن الخيار لك يا بنى .. لكن اسمع لى
قبل أن تغادر مكتبي أن أكون ثقيلاً بعض الشيء ،
وأخالف القاعدة التي وضعناها هنا .. اسمع لى أن أقص
عليك قصتي :

« لقد كانت لى ابنة جميلة ، وزوجة وفرت لى كل
أسباب النجاح والسعادة .

وكانت ابنتى وزوجتى هما كل حياتى .. فقد كنت
رجل أعمال ناجحاً مرموقاً ، أملك الكثير من المال ،
الذى كفل لى حياة رغدة سعيدة .

ولكن كل تلك الثروة التي كنت أملكها ، لم تكن
تساوى بالنسبة لى لحظة سعادة واحدة أقضيها بجوار زوجتى
وابنتى .

لقد كانا هما ثروتى الحقيقية ، والنعمة الغالية التي أنعم
الله بها عليّ ..

وفي يوم مشنوم كنت عائداً من رحلة عمل
بالتحارج ، وكان اليوم يوافق ظهور نتيجة ابنتى في كلية
الطب .

ونجحت ابنتى .. نجحت بامتياز .. كادت تطير من
السعادة وهي تخبر أمها بالنتيجة .

ومن فرط سعادتها لم تذّر حتى أحضر إلى المنزل
فتخبرنى ، وإنما أسرعت تقود سيارتها ، وتمضى لمقابلتى في
المطار ، حتى تكون أول من يخبرنى بنجاحها المتفوق ..
ورجت أمها أن ترافقها .

مضت الاثنتان وهما في قمة السعادة التي أرادا أن
يشركاني فيها لاستقبالي في المطار .

لكن القدر أراد نهاية أخرى .. أراد أن يستبدل
بالسعادة الألم وبالفرحة العذاب .

فتحطمت بهما السيارة في حادث مروّع ، على مسافة
قريبة من المطار .

وتوفيت على أثرها زوجتي .. وأصيبت الابنة بالشلل
النصفي . وبصدمة عصبية حادة ، أدت إلى انتحارها بعد
ثلاثة أيام فقط من الحادث .. ولك أن تتصور كيف كانت
حالي في تلك الفترة .

لقد كنت مثلك منهاراً تماماً .. مستسلماً للفجعة
والحزن ..

هجرت عملي وبيتي ، وأصبحت أقيم على وجهي ..
وفي إحدى الليالي فكرت في الانتحار والرحيل عن هذا
العالم ، الذي أصبح في نظري صورة مرادفة للحجيم .

ولكن الله كان رحيماً بي .. فلم يرد أن أحمل في الدنيا
عذاب فراق الزوجة والابنة ، وأعذب في الآخرة بذنب

اليائس الكفور ، فساق إلى في هذه الليلة رجلاً صالحاً أشبه
بالملاك الرحيم ، قابلني وأنا أقيم على وجهي في الطريق ،
وقد أوشكت على فراق الدنيا بعد أن قررت الانتحار ،
وطلب مني أن أقص عليه قصتي .

وكما رويت له جزءاً من آلامي .. كان يروي لي
الكثير من الآلام والمآسي التي عرفها ، وانتصر عليها
بالإيمان .

وتبدلت حالي .. وتبددت أحزاني على يد هذا الرجل .
وشعرت بشعاع من نور يتسلل إلى قلبي وينيره .
وشاءت إرادته (سبحانه وتعالى) أن يلهمني فكرة
هذه الدار في تلك الليلة نفسها ..

فوضعت ثروتي وكل أموالي من أجل إنشائها ،
هادفاً من وراء ذلك إلى جمع أصحاب القلوب المعذبة الذين
نالهم ضربة من ضربات القدر بمآسيها ، ليعرف كل
منهم أن همومه وأحزانه تتضاءل بجانب أحزان وهموم
الآخرين .

وأنه يمكن لأي شخص - مهما بلغ شقاؤه - أن

يكتشف جوانب أخرى للسعادة بعيداً عن تلك الدائرة الضيقة المحزن التي فرضها حول نفسه .

لقد جرّبت ذلك بنفسى ، وشبثاً فشبثاً شعرت أن مأسائى الخاصة تتوارى وتشعب ، وأغرق فى مأسى الآخرين وأحزّانهم .

ولا تعرف قدر السعادة التى أشعر بها حينما أجد أن بعض من جاءوا إلى هذه الدار قد فارقوها بعد أن تجدد لديهم الأمل فى الحياة ، وتبددت فيهم روح اليأس والاستسلام ، وأقبلوا على الحياة بقلوب وعقول جديدة تماماً .

وهذا التغير الذى أراه فيهم هو الثمن الذى أجبني من أولئك المعذبين فى مقابل إقامتهم فى هذه الدار .

لقد أردت أن أقص عليك هذه القصة فقط ، لكى تعرف أن الاغتراب والعزلة التى تنشدها لن تحل لك المشكلة ، بل بالعكس فإنها قد تزيد من قسوتها عليك .

وإذا أردت أن تتغلب على معاناتك التى تشعر بها داخل ذاتك ، فعليك أن تفتح عقلك وقلبك للآخرين ،

وتدعهم بدورهم يفتحون لك عقولهم وقلوبهم ، كى يكون كل منكم البلسم الشافى للآخر .
- قلت :

- ربما قد تكون على حق فى كل ما قلته .. لكن صدقنى أنتى لا أريد الآن إلا العزلة والابتعاد عن الآخرين .. فأذناى لم تعودا تطيقان السمع ، ولسانى لم يعد يطيق ترديد الكلمات .
قال :

- كما تحب .. عموماً أريد منك أن تعرف أن كل ما قدمته لنا من تفاصيل حول تجربتك الشخصية ، وحالتك النفسية ، يحفظ لدينا فى ملف سرى لا يطلع عليه أحد قط . بل يظل سراً لا يعرفه الآخرون ، وذلك حتى تكون لك حرية الاختيار فى أن تطلع الآخرين على ظروفك النفسية أو لا تطلعهم .

إن الأمر فى النهاية مرجعه إليك وللوسيلة التى تختارها ، ولن تجدى حتى أنا فى يوم من الأيام أناقشك فى أية أشياء تدور حول ظروفك الخاصة ، وحالتك النفسية .

هذا هو مفتاح غرفتك .. غرفة رقم (٢٢) ، وهي في
 ركن منزول من الدار فيما أحسب أنك تفضل ..
 فقط ستجد نفسك مضطراً للاختلاط بالآخرين ساعة
 تناول الطعام .. فهذه قاعدة متفق عليها هنا .. لا طعام
 بالحجرات .
 وفي النهاية .. لم يعد لدي سوى أن أدعو الله لك يا ولدي
 أن ينير قلبك ، ويجعلك أقوى من أحزانك وهمومك .



٧ - زائرة ملائكية ..

كان بالدار أربعة عشر نزيراً .. عشرة رجال وأربع
 سيدات ، كل منهم جاء إلى هذا المكان حاملاً معه مأساته .
 على أنني لم أحاول أن أعرف أى شيء عن تلك المآسي ،
 مكتفياً بعزلي التي سعدت بها .

ومرّ على أسبوع كامل في تلك الدار بعيداً عن
 الآخرين ، إلا في تلك الساعات القليلة التي كنا نتناول
 فيها وجباتنا ، والتي كنت أكتفى منها غالباً بوجبة واحدة
 طوال ساعات النهار .

ثم أعود بعد ذلك لأنفرد بنفسي في غرفتي الصغيرة .
 وبعد فترة قليلة من الهدوء النسبي ، عاودتني من جديد
 تلك الهواجس والاضطرابات النفسية العنيفة التي كانت
 تهاجمني في الماضي .

وحاولت المقاومة في البداية ، لكن اضطراباتي النفسية
 كانت أقوى من مقاومتي .

وشيثاً فشيئاً بدأت أستسلم لحالة جديدة من الاضطراب

العصبي المصحوب بالصرع ، إلى أن شعرت بأننى أقرب
تدريجياً من حافة الجنون .

والحقيقة لم يحاول أحد أن يتدخل فى حياتى ، ويدرس
أنفه فى مشكلتى ، حتى صاحب الدار كان وفيًا لعهدى معى ،
وتركنى أختار لنفسى الأسلوب الذى أرتضيه للحياة فى تلك
الدار .

كما أن عزلى الطويلة فى غرفتى لم تمنع لأحد أن يلحظ
تلك التغيرات التى كانت تطرأ علىَّ عندما تهاجمنى تلك
الحالة .

إلى أن جاء ذلك اليوم الذى كنت فيه منفرداً بنفسى
كما هى العادة ، وبدأت تلك المواجهات المخيفة تهاجمنى ..
حتى شعرت بصوفى يتحشرج ، وأنفاسى تكاد تختنق ..
وظل العرق يتصبب منى غزيراً ، حتى أننى لم أنتبه لوقع
خطواتها ، ودقات أصابعها ، وهى تطرق باب غرفتى .

ظلت تطرق الباب أكثر من مرة ، فيما كنت أعانى
من تلك الحالة العصبية التى انتابتى فجأة .. وازدادت
غزارة العرق الذى أخذ يتصبب من جميع أجزاء جسمى .

وأخيراً .. تنبهت لتلك الطرقات على بابى ، فانتزعت
نفسى مما أنا فيه ، وقت لأفتح باب الغرفة .

ورأيتها .. رأيتها للمرة الأولى .. رأيت (عير) .

كان العدد محدوداً فى تلك الدار كما ذكرت .. وكنا
نجتمع معاً لتناول الطعام حول مائدة واحدة .

لكنها كانت المرة الأولى التى أنتبه فيها إلى أن هذه
السيدة الصغيرة ، ذات الجلال الملائكى ، تشاركنا فى دار
المعذبين ، التى نعيش فيها .. وجاء صوتها إلى أذنى مكلاً
لتلك الصورة الملائكية ، التى انطبعت فى خيالى عند
رؤيتها .. فقد كان صوتاً هادئاً رخيماً ، وإن كانت
تشوبه بعض النبرات الحزينة ، التى حاولت أن تخفيها
وهى تبتلرنى :

— أنا آسفة لإزعاجك .. ولكنك نسيت نظارتك
أمس ، وأنت تتناول طعام الغداء بجوارى ، وانتظرت
أن تبحث عنها أو أسلمها لك عند حضورك لتناول الطعام
اليوم .. لكنك لم تحاول البحث عنها ، ولم تأت لتشاركنا
الطعام كما هو المعتاد .

لذلك قرّرت أن آتي بنفسى لأسلمها لك ، وإن كنت أرجو ألا يكون ذلك اقتحاماً غير مهذب منى ، نخلوتك بنفسك .

— أشكرك يا سيدتى .

— أدعى (عير) .. أستاذ (مدحت) ، هل أكون متطفلة لو سألتك : لماذا لم تحضر لتشاركنا طعام الغداء اليوم ؟

— فى الواقع لائى لائى ..

— يبدو أن سؤالى كان تطفلاً بالفعل .. عموماً فأنت لست مضطراً للإجابة عن سؤالى .. وأرجو المَعذرة .

وهمت بالانصراف .. ولكن يبدو أنها لاحظت حالة الإعياء التى كنت عليها ، وأنا أستند إلى باب الغرفة ، والعرق الذى يتصبب منى ، فعادت تقول :

— أستاذ (مدحت) ، أنت مريض ؟

— كلاً لائى بخير .. إنها حالة تثنائى من آن لآخر .

— إن الدكتور (منير) موجود بمكتبه الآن بالدار ، هل أستدعيه ؟

— لا .. لا داعى .. لائى بخير .. وأشكر

ولكن قبل أن أكمل جملتى ، كنت قد سقطت إلى الأرض فاقد الوعى .

أفقت من حالة الإغماء التى انتابتنى ، لأجد الطبيب واقفاً أمامى ومعه ذلك الرجل الطيب ، صاحب الدار ، وتلك السيدة الرقيقة .. سألتى الطبيب قائلاً :

— حمداً لله على سلامتك .

تساءلت ، وأنا أدير رأسى فيما حوالى مستغرباً :

— أين أنا ؟ وما الذى أتى بى إلى هنا ؟

— أنت فى حجرة الفحص الطبى .. لقد تم إسعافك من حالة مرضية عصبية ، نطلق عليها اللاوعى الإرادى .. منذ منى وأنت تعرّض لهذه الحالة ؟

أجبت :

— لا أدرى .. لقد بدأت معى منذ عدة أشهر ، ولكنها بدأت تعاودنى من جديد منذ أيام قلائل ، بعد أن كنت قد شفيت منها .

— أنصت لى جيداً يا أستاذ (مدحت) .. إن اللاوعى

الإرادى بأسلوب مبسط ، حالة يفقد فيها المريض وعيه سيكولوجياً دون ما سبب عضوى .. أى أن إرادتك هى التى تتجه إلى إحداث ذلك الشعور النفسى بفقدان الوعى حتى ينتهى بك الأمر إلى فقدان الوعى فعلاً .. ولكنه يكون فى حالتك مصحوباً بنوع بسيط من الصرع ، نتيجة تضخم الإحساس بهذا الشعور .

هل انتابتك هذه الحالة أكثر من مرة منذ دخولك إلى هذه الدار ؟

— نعم .

— ولماذا لم تخبرنا بذلك ؟

أجبتة بعصبية ظاهرة :

— لم أجد أن هناك ما يستحق كل هذا الاهتمام .

— يجب إذن أن تشكر السيدة التى أمرعت باستدعائنا ،

فالنوبة هذه المرة كانت خطيرة ومتقدمة .

إن اتجهاء إرادتك نحو اللاوعى الإرادى يعبر عن محاولتك الهروب من الواقع الذى تحياه .. كما أنه

قاطعته وأنا أصرخ بحدة قائلاً :

***** ٥٦ *****

— كفى .. كفى .. لا أريد تلك التشخيصات والتحليلات المرهقة .. لماذا لا تدعوننى لشأنى ؟ لماذا تقحمون أنفسكم دائماً فى حياتى ؟

أجابنى صاحب الدار بصوته الهادئ الحنون :

— يا سيد (مدحت) .. عليك أن تعرف أننا لا نتدخل

فى حياتك ، إلا حينما تكون مهددة بالخطر .. ولا شئ غير ذلك .

أما إذا أردت الانتحار بهذه الصورة ، فعليك أن

تختار مكاناً آخر غير هذه الدار ، لكى تحقق فيها مرادك ..

ربما أن وسائل العلاج لدينا غريبة ، وغير تقليدية ،

ولكن فى النهاية فإن هذه الدار قد أنشئت لعلاج النفوس

البشرية « وهدايتها » وليس من أجل تدميرها .

— إننى آسف ، فأنا متعب .. متعب للغاية .

وعدت للانخراط فى بكاء شديد ..

وأشارت السيدة للآخرين أن يارحوا الغرفة ، ثم

جلست إلى جانبي ، وهى تمسك بيدي بحنان قائلة .

— أستاذ (مدحت) .. إننى لا أعارض مطلقاً اختيارك

***** ٥٧ *****

للأسلوب الذى تريد أن تعيش به هنا ، فأنا من أنصار حرية التجربة والاختيار ، وما دمت تستعذب الألم ، ولا تريد أن تشرك الآخرين فى أحزانك ، فذلك شأنك وحدك .

ولكنى أريد أن أسأل : لماذا تقتصر على اختيار واحد ؟ لماذا لا تجرب إحدى الوسائل الأخرى ، ثم تختار فى النهاية ؟ .

لماذا تصر على أن المعاناة والعزلة والهروب من الآخرين هى الأسلوب الوحيد للتعامل مع الواقع ؟ لماذا لا تحاول أن تجرب ذلك الأسلوب الذى تتبعه هنا فى هذه الدار ؟

أن تشارك الآخرين ، وتشركهم فيما تشعر به من ألم ومعاناة .. وبعد ذلك تقرّر أن تختار بنفسك الأسلوب الذى ترتضيه ، والذى تشعر بأنه أكثر راحة لنفسك .

فلماذا أحسست أن التجاوب مع الآخرين سيخفف من بعض همومك ويفردك إلى الخلاص من ذلك العذاب النفسى الذى تشعر به ، تستمر فى التجربة حتى النهاية .

أما إذا شعرت بأنك تستريح لعزلك وانطوائك عن الآخرين ، فلك أن تستمر فى اختيارك .. فقط حاول .. حاول أن تخوض التجربة .. وكما ترى هنا ، لا أحد يجبر الآخر على شيء ، ولن تجد من يجبرك على مخالفة اختيارك فى النهاية .

قلت وأنا أجفف دموعى من فوق وجهى ، وصوتى يشى بانكسار لم أستطع إخفاءه :

— إن محاولتى الإقدام على مخالطة الآخرين وممارسة ذلك الشعور الاجتماعى مرة أخرى .. الشعور بأهمية العلاقات الإنسانية .. أن أحتاج للآخرين ، ويحتاج إلى الآخرون .. قد يجعلنى أقبل على الدنيا من جديد .

وأنا لا أريد ذلك .. إننى أخشى ذلك الشعور .. أخاف الرغبة فى الإقبال على هذه الدنيا المخادعة .

فالفتاة التى أحبتها يوماً ما ، لم تكن سوى صورة مصغرة من هذه الدنيا .. مادية .. مخادعة .. تجعلك تقبلين عليها ، وتتوسمين فيها الأمل والسعادة .. ترين الأشياء بصورة زائفة ، ولكنها جميلة ، ثم لا تلبثين حين تبرز لك

أنياب الغدر ، أن تجدى أن كل ما قدمته لك من آمال
عريضة وسعادة غامرة ، لم تكن سوى أوهام وخيالات ..
غلاف براق ، يخفى تحته عذاب وشقاء لا حدود لها ..

تفاجئين بأن خلف تلك الصورة الجميلة التي صورتها
لك صورة أخرى بشعة كربية ، لم تكوني تتوقعينها ،
أو تتخيلينها يوماً من الأيام .

قالت وقد ارتسمت ابتسامة أمل على قسباتها :
- هأنذا قد بدأت تخطو خطواتك الأولى في التجربة ..
لقد تحدثت معي عن بعض آلامك .. وذلك يعني أنك
شعرت بالرغبة في أن تتكلم إلي ، أو إلى أي شخص يمكنه
أن يسمعك ، وذلك في حد ذاته بداية طيبة .

ولم تكذ تنهى حديثها حتى انتفضت واقفاً ، وأنا
أقول بحدة وغضب :

- إن ما قلته لا يعني سوى شيء واحد ، هو أن
تكفوا عن مضايقتي ، وعن إصراركم على أن تجعلوني
حقلاً لتجاربكم الإنسانية ، التي تريدون أن تطبقوها هنا .
عليك أن تكفي عن محاولتك السخيفة هذه لاستدراجي

إلى ذلك المختبر الاجتماعي ، الذي تريد أن تقوديني إليه .
لقد قلت من قبل : لا أريد أن أستمع إلى أحد ، أو أتحدث
إلى أحد .

وإذا كنت تبحثين عن صديق يسلي وحدتك فلتبعني
عن سواي .

كنت فقط معها للغاية في هذه الليلة ، حتى أنني
لم أعبأ لحظة واحدة بذلك الشعور بالجرح ، والمهانة
الذي ارتسم على وجهها ، وجعلها تسرع خارجة من
الغرفة ، ودموعها على خديها .

وانصرفت إلى غرفتي ، وأنا في حالة من الثورة
العارمة ، بعد أن أغلقت الباب خلفها بعنف .

ولم أدري أكانت هذه الثورة عليها .. أم على نفسي ..
ولكن كل ما أعرفه هو أنني لم أذق طعم النوم في
هذه الليلة .. وعاودني في تلك الليلة ذلك الشعور الإنساني
بالأسف والندم لإيلاام الآخرين ، برغم أنني قد تصورت
أنني قد نسيت هذا النوع من المشاعر ، وأنها قد تبددت
بداخلي ، وأصبحت مقصورة فقط على نوعين هما : الحزن
والكراهية .

٨ - صداقة جديدة ..

وفي اليوم التالي .. ظللت أبحث عنها في أثناء تناول الطعام ، فلم أجدها ، وسألت جاري عنها قائلاً :
- ألم ترَ تلك السيدة التي تدعى

- تقصد (عير) .. لا إنها لم تحضر اليوم لتشاركنا الطعام على غير عاداتها .

وعافت نفسي أي رغبة في تناول الطعام بلوري ، فتركت المائدة ، وقت لأبحث عنها .

ظللت أبحث عنها في غرفتها .. وفي أرجاء الدار دون جدوى .. وأخيراً لمحتها جالسة في أحد أركان الحديقة ، الملحقة بالدار .. كانت ساهمة شاردة ، وكأنها تتطلع إلى الأفق البعيد .

وظللت أرقبها من بعيد ، وأنا متردد في الذهاب إليها ، وقد تملكني الحجل منها .

ثم لم ألبث أن استجمعت شجاعتي ، واقتربت منها قائلاً :

وكانت هذه الليلة هي الليلة الأولى التي تتبدل فيها ذكرياتي الأهمجة إلى مشاعر أخرى حسبتني قد نسيتها .. مشاعر تأنيب الضمير ..

ذلك الضمير الذي أخذ يؤاخذني على ما فعلته مع تلك المخلوقة الرقيقة التي جرحتها بقسوة ، لا شيء سوى أنها حاولت أن تساعدني على الخروج من محنتي ..



— أسمحين لي بالجلوس إلى جوارك ؟

فأجابتنى دون أن يبدو عليها أى تعبير بالغضب ،
أو التأنيب اللذين أستحقهما .

— بكل سرور يا أستاذ (مدحت) ..

ووجدتنى أفرك أصابعى ، كتلميذ خائب ، يبحث
عن كلمات يقولها :

— إتنى لا أعرف ماذا أقول عن تصرفى معك أمس ؟
ولكنى آسف حقيقة .. آسف جداً .

— إنك لست بحاجة لأى نوع من أنواع الأسف
يا أستاذ (مدحت) .. فأنا مقدره تماماً مشاعرك المضطربة
المتضاربة .

كما أتنى أعرف جيداً أنك لم تعنى ما قلته أمس ..
خاصة وأتنى أرى فيك — برغم الظروف الصعبة التى تمر
بها — صورة سيد مهذب لا يمكن أن يفكر فى إيذاء
الآخرين .

— سيدتى .. إن كلماتك تزيد من ندى .. ولكن ربما
لو أخبرتك أتنى قد أصبحت مستعداً لتنفيذ مطلبك ،

وممارسة الأسلوب المتبع هنا أكون قد كفرت بعض الشيء
عن خطئى ..

وتهلل وجهها قائلة :

— ربما أن الإقدام على اللجوء إلى التجربة ، واستخدام
وسائل مختلفة للعلاج كنوع من الاعتذار لشخصى ، لا يعد
هو الأسلوب الأمثل فى الاختيار .

ولكنى مع ذلك أرحب باستعدادك ، ما دام أن اختيارك
النهائى هو الذى سيحكم على التجربة .

— متى تريدن أن أبدأ ؟

— من غدا لو أردت .

قلت :

— إتنى أريد أن يقتصر الأمر أولاً على شخص واحد
أرتاح إليه ، وأشعر بأنه يصلح لأن يكون هو الصديق ،
الذى يمكن أن أبوح له بمكنونات نفسى ، وبعد ذلك أرى
إن كنت أرغب فى مخالطة بقية نزلاء الدار والاندماج
معهم أم لا .

قالت :

— هل حددت لنفسك صديقاً معيناً من بين نزلاء

الدار ؟

— لا .. فكما ترين فلانتي لم أخالط أحداً منهم من قبل

مخالطة جدية ، لذلك سأترك لك أن تختاري لي هذا
الصديق ، وأنا أثق في اختيارك .

— أستاذ (مدحت) ، أتوافق أن أكون أنا هذا

الصديق ؟

وابتسمت بمرارة قائلاً :

— إن آخر ما أتصوره هو أن أقص معاناتي على امرأة .

— لماذا لا تنسَ أنني امرأة وتعتبرني صديقة فقط ؟ ..

مجرد صديقة تروى لها عن أحزانك وهمومك ، بغض
النظر عن الجنس والنوع ولا تنسَ في النهاية أنها تجربة ..
يمكنك أن تقبل من خلالها هذه الصداقة ، أو ترفضها .

— هل لي أن أسألك سؤالاً ؟

— تفضل .

— لماذا كل هذا الاهتمام بي وبجائتي النفسية ؟

— لأنني جربت من قبل طعم الوحدة والاغتراب ..

صدقني إنها لا تعود علينا بشيء سوى المزيد من الشقاء ،
والعذاب النفسي ، إنك تخاف الآن من العلاقات الاجتماعية ،
والإقبال على الدنيا من جديد .

لكن ربما لو جربت طعم الدفء الإنساني .. مجرد
أن تسمع كلمة تشعرك بأن هناك من يشاركك همومك ،
أو تواسي إنساناً بكلمة تشعر أنها قد خففت من آلامه .

ربما لو فعلت ذلك وأحسست بما سيعود عليك من
راحة وهناءة .. فقد تندم على ماضع من عمرك من سنوات
أضعتها في عزلة ، واغتراب عن هذه الدنيا ، التي يمكن
أن نجعلها جميلة لو أردنا .



٩ - أحسست بالمشاركة الوجدانية ..

وتعددت لقاءاتنا ، ورويت لها الكثير عن حياتي وتجربتي .

رويت لها عن سنوات الجامعة .. وعن الأحلام الجميلة التي ظلت تداعب خيالي منذ أن كنت طالباً .

بل عدت معها بذاكرتي إلى ما هو أبعد من ذلك .. إلى سنوات الطفولة ، وذلك الأب المثالي الحنون ، صاحب المبادئ والقيم ، التي انتهت به إلى الفصل من الوظيفة ، وابتعاد القريب قبل القريب عنا .. لكنه ظل شاعراً أيقظاً ، مصرّاً على مثله ومبادئه ، وكان يقول لي دائماً تلك الحكمة التي ظل يؤمن بها :

« عليك أن تتذكر أن تخسر العالم وتكسب نفسك ، أفضل لك بكثير من أن تكسب العالم ، وتخسر نفسك » .

لقد تشبعت بمثله وقيمه ومبادئه ، رغم أنه تعذب بها .. ولكنه كان منذ اللحظة الأولى واعياً لشروط هذا العالم .. صلياً أمام من غلروا به .. وكان دائم التفاؤل في أحلك

لحظات اليأس ، لهذا كان قوياً .. قوياً فوق آلامه .. صامداً أمام من غلروا به وحاربوه .

أما أنا ، فقد أخذت هذه المثل والمبادئ منه ، مكملاً بأكليل البراءة ، أو قولي السذاجة ، لو شئت ، فكلاهما يؤديان نفس المعنى في النهاية .

لم أكن أملك وعيه وخبرته بشروط الحياة .. ولم تكن لدي قوته وصلابته أمام من غلروا بي .. والأهم من ذلك لم يكن لدي تفاؤله في مواجهة صدمات القدر .

ولهذا انهرت عند أول صدمة عاطفية واجهتها في حياتي .. لم أحتط لحقد الصديق ، وغدر الحبيبة .

ضعفت عند أول مواجهة بين مثلي وأحاسيسي ، وبين أشياء كثيرة ما يحدث في هذه الدنيا ، ولا تؤثر في الآخرين ، كالخيانة والجحود .. نعم .. إنني أعترف بأنني لم أكن أقوى من أزمتي .

لكن صديقي .. إنني لا أملك حيال نفسي شيئاً .. هناك جرح في نفسي لا يريد أن يتدمل .. ولا أعرف كيف أشفي منه ؟

كانت تستمع إلى منصته، وعلى وجهها ذلك التجاوب
الإنساني، مع مشاعر الألم التي كنت أعبر بها عن صدمتي،
ليلة زفاف (كريمة) من (صلاح) .
قالت لي :

— الشيء الغريب أن ظروفنا تكاد تكون واحدة ..

فلست وحدك ذلك الإنسان الحساس، الممتلئ بمشاعر
النبل والخير، الذي اصطدمت مشاعره بصدمة الحياة .
لقد تزوجت يوماً ما رجلاً كان هو كل حياتي،
وتزوج زواجنا بابننا الصغير، الذي كان بالنسبة لي جزءاً
لا يتجزأ من جسدي، وعقلي وروحي .

كنت أعتبر ذلك المنزل الذي يضمنا جزءاً من الجنة،
أودعه الله في الأرض .

لم أبخل بجهود أو عزيمة، من أجل الحفاظ على تلك
الأسرة الصغيرة التي كانت كل ما أملكه، وأعشقته
على هذه الأرض .

لقد كانت هذه الأسرة الصغيرة بالنسبة لي المستقبل،
والآمال العريضة التي ظللت أرسمها كل يوم .

ولكن فجأة تبدل كل شيء .. ضاع المستقبل،
والآمال العريضة تبددت من بين يدي .

كنت أجهز طعام الغداء لزوجي وابني، إلى أن
يعود كل منهما من عمله ومدرسته .

جهزت الطعام المفضل لدى زوجي .. وأعددت
(تورتة) الشيكولاتة التي يحبها ولدى الصغير (عمر) .

ولكني ظللت أنتظر دون أن يحضر ابني من مدرسته،
وزوجي من عمله، ولم يتناول أحدهما هذا الطعام الذي
أعدته أبداً ..

ونظرت إلى عينيها فوجدتها قد اغرورقت بالدموع،
التي سال بعضها على وجنتيها « فقدمت لها منديلًا لمسح
دمعها قائلاً :

— مدام (عير) .. إذا كان ذلك الحديث يؤلمك ..
فأرجو أن تتوقى عن تكلمته .

ومسحت دموعها بمنديل، وهي تغتصب ابتسامة
كان فيها من معاني المرارة أكثر مما فيها من معاني الابتسام
قائلة :

— أنسيت أن ذلك الحديث هو جزء من تجربتنا
المشتركة في علاج أرواحنا البائسة ؟

واستمرت في رواية قصتها قائلة :

— وبعد ذلك عرفت أن زوجي كان قد تزوج من
فتاة أمريكية في الخفاء ، وهاجر معها إلى الولايات المتحدة
بعد أن أخذ معه ابنتنا الوحيد ..

كانت الطائرة تقطع بهما في نفس الوقت الذي كنت
أجلس فيه بجوار مائدة الطعام في انتظارهما ..

نعم .. لقد أعد زوجي كل شيء بعناية .. كان يعد
لذلك منذ وقت طويل ، دون أن أدري .

الزواج .. أوراق السفر .. أوراق المدرسة التي
سحبها في نفس اليوم ، مدخراته في البنك .. الأشياء الثمينة
التي كان يحرص عليها ، والتي أخذها من المنزل قبل أن
يغادره دون أن أدري .

لقد رتب كل شيء بدقة — دقة محكمة — وكان آخر
ما أعده من ترتيبات هي تلك الورقة التي أرسلها لي زوجي
مع أحد جنود الشرطة .. ورقة الطلاق .

هكذا بدون أي مقدمات .. بدون أن أرتكب معه خطأ
واحداً في حياتي .. لم يكن لي هم سوى إرضائه ، ورعاية
ابنه ، والسهر على راحتها .. عشت معه زوجة وفيئة
مخلصة .. تحملت كل نزواته وهفواته .. تحملت من أجل
ابني ، ومن أجل حبي له .

أطاح بكل ذلك فجأة ... خرب حياتي .. وحرمني
ولدي الوحيد ، ومن دنياي التي لم أكن أعرف لي دنيا
أخرى سواها .

حاولت .. وبذلت الكثير للبحث عن ابني واسترداده ..
سافرت بنفسي إلى الولايات المتحدة ، متنقلة من ولاية إلى
أخرى ، سعياً وراء البحث عنهما ، بعد أن أنفقت كل
ما لدي من مال دون جدوى .. وهكذا ضاع كل شيء ..
وهكذا ترى أن الحياة أمر غير مقصور على المرأة
وحدها كما تصوّرت .. وأن الشقاء لم يختصك بالنصيب
الأكبر كما تخيلت ..

الفارق الوحيد بيني وبينك ، هو أنني في النهاية لم أستسلم
للفجعة ، وقرّرت أن أكون أقوى من آلامي .

فعدت إلى عملي مهتمة بإحدى الشركات الهندسية ،
ولم أدع أحداً يشعر بمأساتي ، التي ظلمت أقاومها ،
وأهرب منها بالتفاني في العمل ، وبالإصرار والعزيمة حتى
عدت للوقوف على قدمي من جديد .

— إذن لماذا جئت إلى هذا المكان ؟

— لأنني كنت أحتاج إليه . — فإن تكون صلباً وقوياً
بطبيعتك شيء ، وأن تتظاهر بالقوة والصلابة ، وتحاول
بها داخل نفسك شيء آخر .. لقد كنت أعيش يومى في
محد دائم مع ذاتي .

كنت أحاول أن أثبت لنفسي وللآخرين من حولي
أنني قوية ، وأن لدي القدرة على اجتياز المحنة التي
ألت بي .

ولكن تلك المقاومة للأحزان في حد ذاتها نوع من
المعاناة ، وأحياناً كانت تخونني قوتي ، فأشعر أنني أريد أن
أصرخ ، وأن أبكي . وأن أفرغ شحنة الألم . ومرارة
الجرح بداخلي في صرخات ودموع .

لكنني كنت أعرف أنني لو أسلمت نفسي للانهار ،

***** ٧٤ *****

فسأظل مستسلمة له إلى الأبد ، ولن أستعيد قدرتي من
جديد على المقاومة .

ولذلك جئت إلى هنا .. جئت لأهرب من معاناتي
اليومية .. وسط بشر لا يختلفون كثيراً عني في ظروفهم ،
ولا أحتاج للتظاهر بالصلابة أمامهم .

جئت لأجرب نوعاً آخر من التصدي لجراح النفس
بالمشاركة في مآسي الآخرين .

ربما كان التحاقى بهذه الدار في البداية محاولة مني
للهرب ، كما فعلت أنت ، لكنها تحولت فيما بعد إلى
مشاركة وجدانية « نضال فيها كل شيء بالنسبة لي ،
إلا الحب والرغبة في إسعاد الآخرين .

ولذلك أردت أن تجرب نفس التحول الذي حدث
لي هنا .

أن تغرق في هموم غيرك ، وتكر في كيفية إسعادهم ،
وكيفية شحذ عزيمتهم ، للتغلب على آلامهم .

وبذلك ستجد نفسك شيئاً فشيئاً تنسى محنتك ،
وتعرف أن كلمات التفاؤل والأمل التي تقدمها لهم أحق بك

أن تقدمها لنفسك ، وتستعيد بها قدرتك من جديد على الوقوف على قدميك ، وشق طريقك في هذه الدنيا .

فالدنيا لا يمكن أن تكون كلها سعادة وهناءة ، كما أنها لا يمكن أن تكون كلها عذاباً وشقاء .

وكانت بالفعل تجربة ناجحة ، وجدت نفسي أندمج فيها تدريجياً ، وأغوص فيها بكل أحاسيسي .

ومرّت الأيام ، وتعددت لقاءاتنا .

ولم تعد هذه اللقاءات تقتصر عليها وحدها ، بل اتسعت لتشمل أشخاصاً آخرين من بقية نزلاء الدار .

وأحسست بتلك المشاركة الوجدانية ، التي حدثتني عنها (عبير) من قبل .. شعرت بالتعاطف والتقارب مع أولئك البؤساء ، الذين أذاقتهم الحياة مرارتها .

أدركت مدى ضالة محنتي وتفاهتها بجوار تلك القصص التي سمعتها هنا ، وشعرت أنني أكاد أنسى صدمتي تدريجياً .

كنت أبحث دائماً عن وسيلة لإسعادهم ، وأنتقي كلمات العطف والتفاؤل ، التي تخفف من أحزانهم .

وكم كانت سعادتي عندما كنا نتشارك جميعاً في الضحك والابتسام ، والألعاب المسلية .

واختفت تلك النوبات التي كانت تداهمني بين الحين والآخر .. لقد كان حقاً أسلوباً جديداً في العلاج النفسي ، جديراً بالتجربة .. فالإحساس بالآلام الآخرين ، والرغبة في إسعادهم ، تداوى جراح النفس وتشفيتها ..

• • •



وفي أحد الأيام ، وبينما أنا جالس معها قلت لها :
- لا أدري في الحقيقة كيف أشكرك ، فبفضلك ،
وبفضل ذلك الرجل الطيب ، صاحب الدار ، أشعر أنني
قد أصبحت مخلوقاً آخر .. لقد أقيت وراء ظهري
ذكرياتي المرة ، وأقبلت على الحياة من جديد ، بحب وود
وصفاء .

(غير) .. أسمحين لي بأن أنطق اسمك مجرداً ؟
- لقد كنت أتمنى أن تفعل .

- (غير) .. إنني لن أسامح نفسي على إيلامي وإهانتني
لك يوم طلبت مني أن أخوض تلك التجربة الإنسانية .
فلولا أنت لظللت حتى اليوم غارقاً في بحار اليأس ،
التي أقيت بنفسي فيها ..

- ليس المهم الآن هو الشكر ، أو طلب الغفران ..
إنما المهم هو أن تسأل نفسك الآن : وماذا بعد ؟

- ماذا بعد ؟ لا أدري ماذا تقصدين ؟

- (مدحت) .. لقد شفيت .. عبرت بحار اليأس ،
التي أقيت بنفسك فيها ، ووصلت إلى شاطئ الأمان .
حان الوقت لمغادرة هذه الدار .. وعليك أن تعود
لعملك ، وحياتك الطبيعية من جديد .

- ماذا تقولين ؟ إنني لن أفارق هذه الدار .
- ليس معقولاً أن تظل فيها بقية العمر .. وإلا فما
فائدة العلاج ، والتحول الناجح ، الذي حدث لك هنا ؟
هذه الدار مخصصة لأصحاب الأزمات ، والأمراض
النفسية ، وأنت تغلبت على أزمته ، واستعدت توازنك
النفسى .. أصبحت إنساناً طبيعياً بكل المقاييس ..
فما جدوى استمرارك في هذه الدار ؟

- وأنت .. أنت الأخرى شفيت من محنتك ، فماذا
بدعوك إلى البقاء والاستمرار هنا ؟
- أليس من الجائز أن تكون مخطئاً ؟

- ماذا تعنين بذلك ؟

- (مدحت) .. إنني أشعر بالتصالح مع نفسي ،

لأنتى هنا وسط هؤلاء الذين قابلتهم هنا .. ولكن حين أخرج بعيداً عن هذه الدار سأفقد هذا التوازن والاستقرار .

— وهذا هو نفس ما أشعر به داخل نفسى ..

— لا .. لا تحاول أن تخدع نفسك ، وتخدعنى .. لقد عدت (مدحت) السابق ، بل أكثر من ذلك .. لقد أصبحت أكثر فهماً للحياة وتقلباتها ، وأكثر قدرة وصلابة على الصمود أمام مصاعبها .

— لا تحاولى أنت أن تقدمى لى كلمات كلها تفاؤل ، وتشجيع ، فى حين أنك لا تعملين بها .. لقد قللت لى من قبل : إن لديك القدرة على الصمود والصلابة مهما كانت العقبات التى تعترضك .. والآن تخافين الخروج من هذه الدار ، لأنك تشعرين بأنك ستفقدن فى الخارج توازنك النفسى ..

— لقد قلت لك إننى حاولت أن أكون قسوية ، وتظاهرت بالصلابة ، وكان ذلك فى ذاته نوعاً من المعاناة ، ولأننى جئت إلى هنا هرباً من هذه المعاناة .

ولكن يوم أن أشعر مثلك بأننى قد تجاوزت محنتى حقيقة لا تظاهراً .. وأنى استعدت توازنى النفسى كإنسانة طبيعية .. فتأكد أننى لن أستمع يوماً واحداً فى هذه الدار .

أما أنت فقد أصبحت إنساناً طبيعياً ، ولديك كل مقومات النجاح ، فلا داعى لبقائك هنا .. وانفعلت قائلاً :

— ومن الذى قال لك إننى عدت إنساناً طبيعياً متوازناً ؟ أنت محملة نفسية ؟ إذا كان وجودى هنا يضايقك يمكننا أن نتوقف عن هذه اللقاءات ، التى نعقدتها معاً ؟

وانتصبت واقفة وهى تقول فى غضب :

— هذه المرة لن أسامحك ، لأننى على يقين أنك قد شفيت ، ولم يعد لديك عذر ، لكى تبرح الآخرين . همت بالانصراف ، ولكنى أمسكت يدها قائلاً :

— (عير) .. أنا آسف .. آسف جداً .. وأرجو أن تسامحنى ، فأعصابى متوترة .. فهناك أشياء كثيرة

أصبحت تربطني بهذه الدار ، بنفس القدر الذى أجد فيه
أشياء كثيرة تبعثنى عما بخارجها .

أيمكن أن نؤجل هذه المناقشة إلى غد ؟

— كما يحب .. وأرجو أن تفكر فيما قلته جيداً .

وقبل أن تنصرف عدت لأسألك من جديد ... ربما
للتأكد من أنها ستأتى ، وأنها قد غفرت لى انفعالى .

— ستأتين .. أليس كذلك ؟

وابتسمت دون أن تجيبنى .. كانت ابتسامتها خلابة ،
رقص لها قلبي فرحاً .. وتأكد لدى ذلك الإحساس الذى
شعرت به نحوها من قبل .. نعم إن ما يربطني بهذه المخلوقة
ليس بمجرد الصداقة ، والمشاركة الوجدانية ، والإحساس
بالامتنان لما قدمته لى من مصلحة مع نفسى ، وإقبال على
الحياة .

لا .. إننى أحبها .. نعم أحبها .. لن أخدع نفسى
خوفاً من تجربتى الماضية .. لن أهرب منها خشية ذكرياتى
مع (كريمة) .. فهذه المرة لم يخدعنى قلبي ، ولست أعيش
صورة وهمية نسجتها من خيالى ، لقد مضى زمان الوهم ..

وأنا الآن أعيش الحقيقة .. فهذه الإنسانية لا يمكن أن
تخدع ، ولا يمكن أن تخون .

إنها شئ مختلف تماماً عن (كريمة) .. نعم .. لقد كانت
(كريمة) هى الوهم ، و (عير) هى الحقيقة .

ولكن ترى لو بحث لها بهذه الحقيقة ، هل سأجد
عندها نفس المشاعر التى أحس بها نحوها الآن ؟



والتقينا في اليوم التالي ، حيث بادرتني بالسؤال قائلة :

- هل فكرت فيما قلته لك أمس ؟

- نعم .

- وما الذي قررته ؟

- لا أستطيع مغادرة هذه الدار .

- لقد خاب أمل فيك .. فقد كنت بالنسبة لي تجربة

راحت على نجاحها .

- وقد نجحت بالفعل .

- نجاح ضئيل .. لقد قطعت نصف الطريق فقط نحو

النجاح الحقيقي .

- وهل أنا بالنسبة لك مجرد تجربة ، راحت على

نجاحها فقط ؟

وتجاهلت سؤالى قائلة :

- (مدحت) ، أقول لي : ما الذي يحصل بينك

وبين العودة لعملك وحياتك الطبيعية صراحة ؟

- (غير) .. إنك لا تفهمين ، لقد تغلبت على معاناتي

النفسية نعم .. لكن ليس معنى ذلك أنني سأستطيع أن

أستأنف حياتي كما كانت من قبل .. لن أستطيع أن أعود

إلى ممارسة عمل ، الذي أحبه مثلاً كما كنت أتمنى ممارسته

في الماضي ..

- وما الذي يمنع ؟

- أنت تعرفين أنني كنت أعمل محامياً .. ولن يوافق

أحد على أن أعمل في مكتبه بعد دخولي إلى المصحة

النفسية .. لن يأتمنى أحد على قضاياء ..

- لقد أخبرتني من قبل أنك تمتلك شقة صغيرة ،

تقيم فيها وحيدك ، فإذا بمنع من أن تتخذ منها مكتباً

لنفسك ، ونستقل بعملك ؟

- هناك الكثير من الموانع ، فالشيء الذي سيرفض

من أجله أصحاب المكاتب أن أعمل معهم سيكون هو

نفس الشيء الذي سيرفض من أجله أصحاب القضايا أن

يسلموا لي قضاياهم .. فالكثيرون يعلمون قصتي مع

(كريمة) ، وبما انتهت إليه هذه القصة .. وأيضاً أنا

نفسى أشعر بأننى لم أعد قادراً على هذا العمل .. فالمحامية
تحتاج إلى الممارسة .. والممارسة لم تتوافر لى منذ فترة طويلة.
- إن هذه الأعذار واهية .. فما دمت تحب مهنتك
فلا بد أنك ستنجح فيها ، والناس سترى أنك قد شفيت
حينما تقف لتتراجع ، وتطرح مذكراتك أمام القاضى فى
ساحة المحكمة .

ويكفيك قضية واحدة تكسبها ، لكى تكسب ثقتهم ،
وإقبالهم عليك .. هناك أيضاً (الدكتوراه) التى حدثتني عنها من
قبل .. هل نسيت أحلامك حول تحضير (الدكتوراه) ؟
وابتسمت وأنا أنظر إلى وجهها قائلاً :

- أتعرفين أنك على نقبض (كريمة) تماماً ؟ كيف
لم أفطن لهذه الحقيقة من قبل ؟ حقيقة إن الارتباط بين
اثنتين لا يتحدثان لغة واحدة محكوم عليه بالفشل حتماً .

نعم .. لقد كنت أنا و (كريمة) نتحدث بلغة مختلفة ..
أما معك أنت فإننا نتحدث لغة واحدة .

وأمسكت يدي ، وهى تقول لى بإصرار :

- (مدحت) ، ستكون لغتنا واحدة بالفعل ، حينما

تخرج من هذه الدار لتجابه الحياة ، وتبدأ فيها رحلة نجاحك .
- إنها ستكون مرحلة صعبة جديدة فى حياتى ..
- ولكنك ستجتازها ، وستنجح فيها ، كما نجحت
هنا من قبل ، فأنا أؤمن بك ، وبقدرتك على النجاح .
- حقاً يا (عير) !! ؟
- أأست متأكداً من ذلك ؟

- لقد استمددت من نظرات عينيك ، ومن ذلك
الإيمان الذى ينبعث منهما قدرتي على الشفاء ، وسوف
أستمد منها قدرتي على النجاح .

- إذن غداً تودع تلك الدار .. وتعود من جديد
لشقتك ومكتبك ، وتبدأ فى ممارسة مهنتك ، بتلك العزيمة ،
والثقة ، والإصرار التى أراها فى عينيك الآن .
- وأنت ؟

- لا تقلق من جهتي .. لأننى سأبقى من أجل هؤلاء ..
ومن أجل القادمين إلى دار القلوب المعذبة .. وربما ألحق
بك خارج هذه الدار قريباً .

- ولكنك لا تدريكين أنك لم تعودى بالنسبة لى تلك

الصديقة التي ساعدتني على النسيان ، وأعادت لي الثقة ..
إنك قد أصبحت بالنسبة لي
- أعرف .. أعرف ..
- ماذا تعرفين ؟
- أعرف أنك تحبني .. لقد فهمت ذلك من نظرات عينيك قبل أن ينطقه لسانك ..
- ومع ذلك لم تحاولي على الأقل أن تحبيني عن تلك النظرات بأي رد يربح استفسارها الحائر .
أريد أن أعرف ردك قبل أن أغادر هذه الدار ..
أريد منك أن تخبريني عما إذا كنت محقاً ، إذ تصوّرت أنك تبادليني نفس شعوري .
- ربما أن ما تظنه حباً ليس له من تفسير سوى تلك الظروف التي تعارفنا فيها ، وجمعت بيننا في هذه الدار .
إن التجاوب الإنساني الذي حدث بيننا نتيجة ظروفنا النفسية المشتركة هو الذي أحدث تلك الأحاسيس الخادعة بالحب ، وهذا شيء يحدث غالباً بين من يمرون بنفس ظروفنا .

***** ٨٨ *****

ولكن بمجرد أن تعود للمشاركة في الحياة الاجتماعية من جديد ، وتبدأ في ممارسة عمالك وحياتك ، ستجد أنك كنت مخطئاً في ذلك الشعور الوهمي ، الذي سيكون مصيره حتماً إلى النسيان .

داهمني خوف مفاجئ ، فصرخت :
- لا يا (غير) .. أنت مخطئة هذه المرة .
فلم تكن المشاركة في الأحزان ، والتجاوب مع الآلام ، هي الدافع لهذا الشعور بداخلي .
لقد أحسست بهذا الشعور منذ لقائنا الأول ، برغم ما انتهى إليه هذا اللقاء .

أحسست أن هناك شيئاً خفياً يشدني إليك ، ويدفعني إلى حبك وظننته عاطفاً مني تجاه تلك النظرة الحزينة ، التي رأيتها في عينيك ، وظننته مرة أخرى إشفاقاً على تجربتك الأليمة ، وظننته مرة ثالثة تجاوباً مع مشاركتك الحنون لتجربتي القاسية .
ولكنني اكتشفت في النهاية أن كل تلك الظنون لم تكن حقيقية .

***** ٨٩ *****

فقد كان ذلك الشيء الذى يجذبني إليك اقوى من
تلك المشاعر ، وأعظم ، فقط كنت أحاول أن أخفى
تسميته الحقيقية ، ولا أعترف بها حتى لنفسي ؛ بسبب
تلك العقدة التى خلقتها تجربتي مع المرأة ..

ولكننى الآن وقد شفيت من هذه العقدة المريرة ،
أصبح لدى الشجاعة الكاملة أن أسميه باسمه الحقيقى ..
فليس له سوى اسم واحد ، هو الحب .. فإن كنت تبادليني
نفس مشاعر الحب ، التى أكتسها لك ، كما تحدثني نفسى
فتأكدنى أننى سأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض
لو قبلت الزواج منى .. وأن نجعل من هذا الزواج الماء
الذى نغسل به كل جراح الماضى .

ولم أكد أننى حديثى حتى رأيت لحظتها تلك الدمعة
التى حاولت أن تخفيها ، فلم تفلح .. رأيتها وهى تتساقط
فوق وجنتيها .

تكلمت وقد أخذ منى الإشفاق كل مأخذ :

— (عبير) .. إنك تعرفين أننى لا أطيق رؤية دموعك.
إذا كان الموقف الذى أضعك فيه الآن يشق عليك ..

فلتنسى ما قلت .. بل اعتبرى أننى لم أقل لك شيئاً ..

وإذا كنت تخشين أن يكون ردك علىّ بالرفض بمثابة
صلعة جديدة قد لا تحملها نفسى .. فتأكدنى أن ذلك
لن يحدث ، وأن ذلك لن يحول دون حبي وتقديرى لك ..
قالت وهى تغتصب بسمه إلى شفيتها :

— (مدحت) .. إن دموعى هى دموع السعادة .. فقد
كنت أظن أن حبك لى وهم فرضته الظروف .. ومن
أعماقى كنت أتمنى أن يكون حقيقياً .. حقيقياً بنفس القدر
الذى أحبتك به .. نعم يا (مدحت) .. إننى أبادلك نفس
الشعور وأكثر .

وزراقص قلبى بين ضلوعى فرحاً بهذا الاعتراف
الذى طالما تمنيت أن أسمعه ..

فبها أكلت (عبير) كلماتها قائلة :

— هل تتذكر حينما قلت لك : إننى عشت طوال الفترة
التى أعقبت رحيل زوجى وابنى عنى وأنا أنظاها بالقوة ،
فى حين كانت جراح الضعف والألم تمزقنى من الداخل ؟
أنظاها بالسعادة وأنا أخفى مرارة الحزن بين ضلوعى .

لقد تبدل كل ذلك معك.. فنذ أن عرفتك أصبحت
أشعر بقوة حقيقية ، استمدتها من وجودك معي بهذه
الدار .

وعدت أشعر بطعم السعادة من جديد ، وهي تتجدد
في كل مرة نلتقي فيها معاً ، ونجلس لتحدث معاً ..

لقد كنت أعتقد من قبل أن ذلك الرجل الذي تزوجته
هو الحب الوحيد في حياتي .. ولكنني بعد أن عرفتك
تأكدت أنني لم أكن أعرف معنى الحب من قبل .

وهكذا تجد أننا متشابهان في كل شيء .. في الأحرار
وفي الأوهام ، وفي المشاعر .

قلت وأنا أكاد أطير من فرط السعادة :

— مهما حاولت أن أقول لك فلن أستطيع أن أصف
مدى سعادتي بما صرحت لي به الآن .. وما دام كلانا يكن
للآخر نفس المشاعر فلتتزوج هذا الحب بالزواج ..

ابتسمت قائلة :

— إنني أوافق بشرط واحد ، هو أن تثبت لي قوتك
ومقدرتك على النجاح في عملك ، وفي حياتك .. أن تكون

محامياً مرموقاً يدافع عن العدالة ، كما نحس بها داخل
نفسك .

إن النجاح المادي لا يهمني كثيراً .. ولكن نجاحك
المهني والأدبي ، هو في المقام الأول .. فالعمل في حد
ذاته قيمة لا بد أن تحرص عليها .. وشرف المهنة قيمة
أخرى ، يجب عليك ألا تتنازل عنها مهما كانت
المغريات ..

قلت والسعادة لا تكاد تسقى :

— كلما عرفتك أكثر ازداد احترامي لك ، وإعجابي
بك ، ومع ذلك فأنا لا أرى مانعاً من أن تتزوج أولاً ،
ونبدأ معاً مشوار النجاح .

— وهل تحرمني أن أكون بالنسبة لك هدفاً غالياً تعمل
من أجله ؟ إن الحب ليس مجرد كلمات تتردد على الألسنة ..
الحب الحقيقي هدف سام نسعى إليه ، ونعمل من أجله .
وعليك أن تثبت لي أنني سأكون هذا الهدف ، الذي
ستعمل وتنجح من أجله .

— لقد أصبح ذلك الهدف هو كل حياتي الآن ..
وأعدك بأنني سأبذل كل ما لدي من جهد ومقدرة من
أجل أن أكون ذلك الرجل الذي يليق بك .

وتنهدت بارتياح قائلة :

— حسناً .. إذن من الغد تودّع الدار .

— هل يمكن أن أحضر لزيارتك هنا بين الحين
والآخر ؟

— عندما نحرز أول نجاح ، وتكسب قضيتك الأولى ..

— إذن فتلك هي الأمسية الأخيرة التي نقضيها معاً
في هذه الدار .

قالت وقد بدأت تشرد من جديد :

— من يلري كم من الأمسيات الجميلة سنقضيها معاً
في المستقبل ؟

— سألقاك غداً قبل أن أغادر هذه الدار .

— أفضل أن نفرق هنا .. فأنا لا أطيق لحظات
الوداع .

وأمسكت يدي وهي تضغط عليها برفق وحنان ،
قائلة وعلى وجهها ملامح الحزن والأسى :
— وداعاً يا حبيبي .
— بل لنقل إلى اللقاء يا حبيبتى .
وضغطت على يدي بقوة ، وهي تحاول أن تمنحي
دموعها قائلة :
— نعم .. نعم .. لا بد أن نلتقي من جديد ..

• • •



وودعت الدار التي جثتها حاملاً معي جراحى وعذابى
بعد أن بدلت بها بسمة الأمل ، وقوة العزيمة ، التي أودعتها
بداخل تلك المخلوقة الملائكية .

وعدت إلى مهنة الحماماء .. مهنتى التي أحبها .. ولم
تكن عودتى سهلة .. فقد صادفتنى عقبات وصعوبات
متوقعة ..

وظللت شهوراً طويلة في انتظار القضايا .. ولكنها لم
تأت .. فقد كان الجميع ينظرون إلى على أنى ذلك المحامى
المريض بمرض نفسى ، والذي دخل المصحة للعلاج .

حتى من كان لا يعرف قصتى مع المرض .. كان
يتخوف من ذلك المحامى المغمور ، الذى لم يسمع به أحد .
لقد رفض بعضهم حتى أن أتطوع للترافع فى بعض
قضاياهم .

ولكننى لم أبتس .. كافحت .. وثابرت ، ولم أضع
وقتي سدى ؛ فقد سجلت اسمى من جديد فى الدراسات

العلية بالجامعة ، للدراسة (الدكتوراه) وحضرت همى فى
الدراسة ، وإعداد الرسالة .

وكانت البداية الحقيقية بالنسبة للعمل عندما تقابلت
بالصدفة مع أستاذى القديم .. الأستاذ (فوزى) .. الذى
عرف منى أننى فتحت مكتباً ، وبدأت أشق طريقى من
جديد فى مهنة المحاماة ..

ولم يبخل على الأستاذ الكريم بتحويل بعض القضايا
الصغيرة من مكتبه إلى مكتبى ، متعللاً بضيق الوقت ،
وزحمة العمل ؛ حتى لا يجعلنى أشعر بأنه يمن على هذه
القضايا .

وبدأت أعمل ، وأنتقل بين المحاكم .. كنت أشعر
كأننى أبدأ من جديد ، ولكننى لم أتخاذل .

لقد كان كل ما أحتاج إليه هى قضية كبيرة .. تشد
الانتباه ، وتحمل لى الشهرة المطلوبة ؛ لتثبيت أقدامى .

نعم .. إن القضايا التي كان يرسل لى بها الأستاذ
(فوزى) كانت تدر على دخلاً لا بأس به .

لكن لم تكن هذه هى القضايا المطلوبة .. فقد كانت

كلها من نوع الجنع البسيطة .. كما أن المال لم يكن هو
هدفي ! لقد كنت أبحث عن إحدى تلك القضايا الكبيرة
التي تهتز لها المحاكم ، وتصنع شهرة المحامي .

وجاءتني هذه القضية أخيراً .

جاءتني عن طريق (إبراهيم) ابن خالتي .

كانت جريمة قتل ، اتهم فيها أحد أصدقائه ظالماً ،
برغم ثبوت الأدلة ، وتوافرها ضده .

ودرست القضية بعناية ، وكدت أن أرفضها ... فلم
يكن أي محام ناجح على استعداد للتصدي لقضية صعبة على
هذا النحو ، تحاصر الأدلة فيها المتهم من كل جانب ،
وتجعل مهمة النيابة غاية في السهولة ، ولا تحتاج إلى الكثير
من الجهود ، لإقناع القاضي بالعقوبة ..

هذا فضلاً عن أن ضميري لم يسترح لبراءة هذا المتهم
في البداية من خلال دراستي للقضية .

على أن شيئاً ما في كلام الرجل ، وفي عيونه وهو
يؤكد لي براءته من تلك الجريمة ، وعدم معرفته بكيفية
وجود كل هذه الدلائل ، التي تشير إلى اقترافه ذلك الجرم ،
جعلني أقبل قضيته .

وبدأت أفند هذه الأدلة واحداً بعد الآخر ، وأستدعي
شهود الإثبات والنفي .

أخذت مني القضية شهوراً طويلة ومجهودات مفضية ..
إلى أن نجحت .. نجحت في النهاية في إثبات تلفيق التهمة ،
وبراءة المتهم .

صديقي (رأفت) .. لن أدخل معك أيضاً في تفاصيل
طويلة حول ظروف هذه القضية وملابساتها .

لكن يكفي أن تعرف أنها كانت البداية الحقيقية
بالنسبة لي .. وكان حكم البراءة الذي دوى في المحكمة
بمثابة ميلادي الحقيقي في مهنة المحاماة .

كانت الصحافة والرأي العام كله يقف ضد ذلك الرجل
البريء ، ويدينه على جريمة قتل بشعة ، راح ضحيتها ثلاثة
أشخاص ، منهم طفل صغير .

وتدريجياً بدأ الرأي العام يتعاطف مع دفاعي ،
ويتحول إلى الإشادة بمرافعتي ، التي برأت الرجل ،
وأوضحت للعدالة المتهم الحقيقي ، لحظة محاولته الهروب من
البلاذ .

وسرفت طريقى إلى الشهرة ، وتزاحمت القضايا إلى
مكتبى الصغير الذى تحول إلى مكتب كبير ، فى منطقة
راقية .

وتزايدت شهرتى بعد أن تزايد نجاحى .. ولمع اسمى
فى عالم المحاماة .

لم أصدق أن كل ذلك قد تحقق خلال سنة واحدة ..
سنة واحدة فقط ، أصبح بعدها اسم (مدحت عبد السلام)
يدوى فى عالم المحاماة ، والفضل فى ذلك لتلك المرأة
التورانية ، التى آمنت بى ، وأعادت لى الأمل والثقة فى
النفس .

ها هو ذا قد تحقق النجاح المادى بجوار النجاح الأدبى ،
الذى لم تصدقه (كريمة) وآمنت به (عبير) .. وكنت
أحتاج إلى إيمانها وثقتها ، لكى أنجح ..

(عبير) التى عرفت فيما بعد أنها كانت تمحضر
جلسات مرافعاتى لترانى وأنا أترافع فى القضايا مخبئة فى
أحد أركان المحكمة ، حتى لا أشاهدها ووجهها ينطق ببريق
السعادة ، لما أحققه من نجاح متواصل .

كنت خلال هذه الفترة ، وبعد أن حققت نجاحى
الأول فى القضية التى ترافعت فيها ، أحاول الاتصال بها
فى الدار دون جلوى ..

وعندما سألت عنها عرفت أنها سافرت إلى أمريكا ،
للبحث عن ابنها من جديد ، وستعود خلال شهر ..

ولكن مررت عدة شهور ، دون أن تتحقق هذه العودة .
لم أقطع الأمل .. وظللت أستأنف طريقى فى النجاح
فى انتظار عودتها ، حتى تأتى لتجد أمامها زوجاً أكثر
شهرة ونجاحاً .. تجد ذلك الرجل الذى يليق بها ، والذى
وعدها أن أكونه ..

وذات يوم جاعنى أحد زملاء الدار القدامى .. جاءنى
بعد أن غادر الدار إثر شفائه ، ليرفع دعوى ضد أقاربه ،
الذين استغلوا فترة وجوده بالدار ، للاستيلاء على أمواله ،
وعقاراته ، بحجة مرضه النفسى ، وعدم أهليته لإدارة
هذه الأموال .

وكان أول سؤال سألته حين حضر إلى مكتبى :

— ألم تحضر (عبير) بعد إلى الدار ؟
أجاب مندهشاً :

— ولكن (عبير) لم تفارق الدار .
صرخت دون وعى :
— ماذا تقول ؟ .

أجابني والدهشة لا تفارقه :

— إن (عبير) لم تزل مقيمة بالدار منذ أن تركتها .
قلت وأنا غير مصدق :

— ولكنني سمعت أنها سافرت .. لقد أخبرني صاحب
الدار بذلك .

أجابني وهو يهز رأسه بإصرار : ويقلب شفتيه في
تعجب وحيرة :

— أؤكد لك أنها لم تفارق الدار منذ أن بارحتها .. لقد
كانت تتباهى دائماً بنجاحك ، وتحمل لنا صفحات الجرائد
التي تشير إلى مراعائك ، وبراعتك في القانون .

وقررت أن أذهب إلى الدار في اليوم التالي .. لن

أفعل كما فعلت من قبل ، بالاتصال مسبقاً مع صاحب
الدار ، والسؤال عنها .

أو المرور عليه قبل دخول مبنى الدار وحديثه .
سأتوجه إلى هناك مباشرة ، لأؤكد مما قاله لي ذلك
الرجل .

وأبحث عن (عبير) وسط النزلاء ..



وذهبت لأراها تجلس في حديقة الدار.. ونفس الجبال
النوراني الذي كان يشع منها .. حينما رأيتها للمرة الأولى
لم يزل يضيئ عليها بريقه وبهاءه .

وحينما رأتني مقبلاً عليها قفزت من فوق مقعدها ،
وجرت نحوي ووجهها ينطق بالفرحة والاشتياق .

ولكنها تسمرت في مكانها فجأة.. وبدأ عليها وكأنها
قد تذكرت شيئاً ما ، فتبدلت ملامحها في الحال من الفرحة
إلى الاضطراب .

واقتربت منها متسائلاً :

— (عير) .. لماذا كنت تخفين وجودك عني ؟

ما الذي جرى ؟

— لم أرغب في أن تشغل بي عن قضايك وأعمالك .

— إن كل ذلك لم يكن ليساوى شيئاً بدونك .. أنت

تعرفين أن كل هذا النجاح والبريق ، كان الفضل فيه لله

ولك .. فكيف نحاولين إخفاء وجودك عني ، وأنت

المشعل الذي أضاء ويضيئ لي الطريق ؟

***** ١٠٤ *****

— (مدحت) .. إن كل ما حققته كان الفضل فيه

لمجهوداتك ، وإصرارك ، ومثابرتك .. إني لم أفعل شيئاً
سوى أنني جعلتك ترى نفسك على حقيقتها .. ترى الطاقات
الكامنة فيك ، التي كنت تجهلها .

فلا تحملني فضلاً لا أستحقه .. وكفّ عن أن تجعل
من أي مخلوق الهدف النهائي لآمالك وطموحاتك ..

يجب أن تكون ناجحاً وقوياً بذاتك ، ولنفسك ..
وكفاك أن تعمل من أجل الآخرين .

— (عير) .. ماذا تقولين؟ إن الحياة ليست مجرد نجاح

مادي وأدبي.. إن الحياة أولاً وقبل كل شيء مشاركة ،
وحب ، وتضحية .

لقد اتفقنا على أن المشاعر السامية تأتي في الدرجة

الأولى ، إن طاقة حبك هي التي دفعتني للنجاح ، وصورتك
لم تفارق خيالي في كل خطوة كنت أخطوها ..

— هذا عيبك الوحيد يا (مدحت) .. إنك مغال في

رومانسيتك .

— برغم أن الرومانسية لا تعد عيباً ، بل دليلاً على

***** ١٠٥ *****

رقة وارتقاء الإحساس.. إلا أنني سأكون واقعياً ، وأقول
لك الآن هأنذا قد بررت بوعدى لك .. فهل تقبلين الزواج
من رجل أحبك ، وسيظل يحبك طوال عمره ؟

كانت إجابتها مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق :
— أستاذ (مدحت) .. إننى أراك الآن وقد اجتزت
أزمتك تماماً ، بل أكثر من ذلك استطعت أن تحضر نجاحك
بيدك ، وتحقق ذاتك من جديد .

وذلك يعطينى القدرة والشجاعة على مواجهتك بالحقيقة ،
دون خوف عليك ، أو حرج منك .

إننى أعمل طبية فى هذه الدار .. وكل ما حدث بيننا
من أحداث ولقاءات لم يكن سوى جزء من العلاج
النفسى الذى نتيحه هنا .. فنحن نتبع أسلوباً جديداً فى
العلاج النفسى ، يقضى بإلغاء المسافة بين المريض والطبيب ،
دون إشعاره بذلك .

وخاصة ذلك النوع من المرضى الذين يرفضون
العلاج النفسى .. فنجعلهم يعتقدون أن الطبيب هو أحد
المرضى الموجودين بالدار ، حتى يفتح له صدره ، ويوح
له بأزمته .

ويبدأ من هنا دورنا فى العلاج ، بحسب الحالة التى
نقابلها ، فقد كان دورى محدوداً ، بأن أجعلك تتغلب على
أزمتك النفسية دون علاج عضوى ، ثم إعادتك إلى
التوازن الطبيعى بينك وبين المجتمع .

لقد كانت قصتى مع الزوج والابن المهاجر قصة
كاذبة ، الغرض منها النزول إلى مستوى أزمتك ، واكتساب
التعاطف المطلوب بينك وبين الطبيب .

ولما رأيتك منجذباً إلى « قررت أن أستغل عواطفك
نحوى كوسيلة لشحذ همتك » وتقوية إرادتك ، للعودة
للاندماج مع المجتمع .

واعتقد أنك تغفر لنا كل ذلك ، ما دام الهدف الذى
نسعى إليه هدفاً نبيلاً .. والنتيجة واضحة بالنسبة لك .

كما أعتقد أنك الآن تقدر موقعى ، حينما أقول لك إننى
لن أستطيع أن أجيبك إلى طلبك بالزواج .

كانت صدمة أليمة لى .. صدمة جديدة فى حياتى ..
وظللت للحظات مذهولاً ، وأنا غير مصدق ما سمعته
أذنائى .. ولا أدري ماذا أقول .

شعرت بدوار .. دارت الدنيا من حولي .. زاغت
نظراتي .. ها هي ذى لطمة أخرى تنزل على رأسي .. هل
كتب عليّ كلما نهضت على قدمي أن أنال لطمة أليلة مميتة
من القدر .. لم هذا يا ربّي .. لم أدر ماذا أفعل أو ماذا
أقول .. لم أشعر بنفسى وأنا أقول ، وقد انفجر من داخلي
بركان من الغضب :

— إذن فالأمر لا يعدو أن يكون خدعة جديدة ..
كل هذا الحب .. كل تلك الكلمات .. كل تلك الدموع
التي كانت تتساقط على وجنتيك ، كل أولئك لم يكن
سوى تمثيلية رخيصة .

وتتكلمين عن الأهداف النبيلة .. أي أهداف نبيلة
تلك التي تستغلين من خلالها مشاعر وعواطف إنسان مريض
وتوهمينه بالحب ؟

من أجل ماذا ؟ من أجل أن يتغلب على معاناته ؟
وهل قلرت مدى المعاناة التي يمكن أن تتخلف له من
جديد .. من جراء صدمة أخرى ؟

هل أردت أن تشفيني من خدعة عشتها بخدعة جديدة ؟

هل قلرت ما يمكن أن يحدث لرجل يصدّم في عواطفه
ومشاعره مرتين ؟ .. لا يا سيدتي لا تتحدثي عن الأهداف
النبيلة .. إن الأمر لم يكن يعدو بالنسبة لك سوى محاولة
لإثبات نجاحك وتفوقك المهني ، مهما كانت الوسيلة
والأسلوب .

وأنا أشهد لك بأنك كنت بارعة في أدائك لدورك ، إلى
درجة جعلتني أصدق من جديد ، أنه يوجد في هذه الدنيا
المرأة المخلصة الصادقة في مشاعرها وحبها .

جعلتني من جديد أعود ، فأسلم قلبي وحيي وإخلاصي
لامرأة ، برغم التجربة القاسية التي عشتها .

إنك تستحقين شهادة تفوق على علاجك البارع ،
ولكنه سيكون تفوقاً رخيصاً لامرأة حقيرة .

كانت الكلمات تندفع مني كالطلقات .. لم أدر ماذا
أقول .. خيّل إليّ أنني سأتساقط إلى الأرض من فرط
عذاباتي وآلامي .. وصدمتي الثانية .. أواه يا ربّي !! أواه .
لم يبد عليها أنها صدمت بهذه الكلمات إذ سمعتها تقول :
— أستاذ (مدحت) .. كفاك إهانات .. كان يجب

عليك أن تشكرني .. فلولاى ما كنت قد وصلت إلى المكانة

التي أنت عليها الآن .. وكفاك حديثاً عن الصدمات الجديدة،
والمعاناة الجديدة .. فأنا أعرف الآن جيداً أنك قد أصبحت
على درجة من القوة والثقة، تحول بينك وبين أية صدمات
جديدة .

إن كلاً منا يؤدي دوره بحسب ما هو مطلوب منه ..
ودوري في هذا المكان يقتضي مني ذلك الأسلوب الذي
أخبرتكم به ، والآن أيمكنك أن تنصرف وتدعني لأمارس
عملي ؟

رفعت إليها عيني زائغتين ، وابتسمت بمرارة ، وقلت
وأنا أهت :

— تقصدين لتمارسي خداعك .. هل عثرت على
ضحية جديدة من بين هؤلاء تمثلين عليها دور الشفقة
والحنان والمحبة ؟

أدارت لي ظهرها منصرفة ، ولكني أمسكت بذراعها
بعنف ، دون أن ألحظ تلك الدموع المتحجرة في عينيها،
قائلاً لها :

— حسناً .. إني سوف أنصرف يا سيدتي .. سأنصرف
ولن تريني بعد اليوم .

ولكن أريد منك أن تتأكدى من شيء واحد .. هو
أنى لن أسمح لأى امرأة أن تقهرنى بعد الآن .
نعم .. كما قلت .. لقد أصبحت قوياً إلى الدرجة التي
لن أسمح فيها لنفسى بانهيار آخر ، من أجل إنسانة
لا تستحق حتى نظرة احتقار .

لقد وقفت على قدمي من جديد ، ولن أعود فأسقط
على الأرض بعد اليوم أبداً ..
وتركتها منصرفاً ، وقد أعماني الغضب عن رؤية تلك
الدموع المتحجرة ، وهي تساقط من عينيها .



مرّ على هذا اللقاء العاصف عدة شهور ، أفنيت فيها
نفسى فى العمل ، محاولاً الهروب من مرارة هذه التجربة
الجديدة .

وكان (إبراهيم) ابن خالى يعارضنى دائماً فى ذلك
الأسلوب ، الذى حاجتها به قائلاً :

— لم يكن يحق لك أن تهينها على هذا النحو .. أنسيت
أنك مدين لها بكل ما وصلت إليه الآن من نجاح ؟

قلت والمرارة تملأ نفسى :

.. لقد كنت أفضل أن أظل فى شقائى القديم ، مؤمناً
بصدق حبها ومشاعرها ، على أن أشقى بواسطة خدعة
رخيصة ، واستغلال مهين لمواطنى .

— إننى لا أوافقك على هذا رأى .. فلم تكن هناك
أى وسيلة أخرى لإخراجك مما أنت فيه ، سوى ذلك
الأسلوب الذى اتبعته معك ، ومهما كان هذا الأسلوب
فإنه قد أعادك إنساناً جديداً .

وهذا فى حد ذاته سبب لأن يجعلك تدين لها بالفضل ،
لا أن تصب فوق رأسها جام غضبك ، وكل هذه الإهانات
واللعنات .

— إننى أتحدث هنا عن خيانة المشاعر ، فهى فى ذلك
لا تختلف كثيراً عن (كريمة) .

— لا .. اسمع لى أن أقول لك : إن الاختلاف كبير ،
وواضح .. لقد خانت (كريمة) حبها لك طمعاً فى الثروة
والمال .. وأدت خيانتها إلى انهيارك النفسى .

أما (عير) .. فقد كانت تؤدى معك منذ البداية عملاً
نيلاً ، أفصى فى النهاية إلى شفاثك ، وتفوقك فى عملك ،
وحياتك الاجتماعية .. الاختلاف هنا واضح .

— كلنا الاثنين خائنا مشاعرى .

— ولكن هناك فرقاً بين الأهداف النبيلة والغايات
الرخيصة .

— لا تحدثنى مثلها عن الأهداف النبيلة .. فالأهداف
النبيلة لا تبررها إلا وسائل نبيلة مثلها .

.. وما ذنبها إذا كانت طبيعة عملها تقتضى منها ذلك ؟

— أرجوك يا (إبراهيم) ، فلنخلق هذا الموضوع ،
ولا نحاول أن نفتح معى مرة أخرى .. أريد أن أنساه ..
أنساه تماماً .

— بكل ذلك الكم الهائل من القضايا التى تغرق نفسك
فيها .. إنك لا تدع مجالاً لأولئك المحامين الصغار الذين
يعملون معك لعمل أى شيء .

— أريد أن أعمل .. وأعمل .. لقد فاتنى الكثير ..
وأريد أن أعوض الكثير مما فاتنى .

— بل تريد أن تهرب فى هذا التضايق الزائد عن الحد
فى العمل .. إنه الخوف من أن تختلى بنفسك لحظة ، فتتذكر
وتعيش المعاناة من جديد ..

— هل ستعود مرة أخرى إلى هذا الحديث ؟

— إن ما يهمنى هو حالتك الصحية .. إنك تبذل
مجهوداً جباراً فى العمل ، وهذا سيأتى على حساب صحتك
وأعصابك .. إننى أقترح أن تحصل على إجازة ولو لمدة

أسبوع ، تقضيها فى أى مكان هادئ ، لترريح جسدك
وعقلك .

— لا .. لا .. إن أعصابى من حديد .. ولا تخش على
من شيء ، فأرادنى الآن تطالبنى بالعمل ، والمزيد من
العمل ، وهذا يعنى المزيد من الشهرة ، ومن النجاح ،
وهذا محور حياتى الآن ..

— وقضية السيدة (رجاء) .

— سلمها لـ (مملوح) .. دعها تقابله ، وتشرح له
ظروف قضيتها .

— ولكنها تحتاج لمحام قدير مثلك .

— إننى لن أدافع عن أى امرأة بعد الآن .. لا أستطيع
ذلك مهما كانت ظروف القضية .

فالمرأة أصبحت ترتبط فى ذهنى بالفكر والحدیعة ..
وأنا لا أستطيع أن أدافع عن إنسان لا أثق به أبداً .

وفتح (إبراهيم) باب الغرفة لينصرف ، ولكنه
قبل أن يفعل نظر إلى قائلاً :

وفي أحد الأيام أخبرني سكرتيري في المكتب، أن هناك رجلاً يريد مقابلي .

وطلبت منه أن يأذن له بالدخول .

وكم كانت دهشني ، حينما وجدت أن ذلك الزائر لم يكن سوى ذلك الرجل الصالح ، صاحب الدار .

وقت لتحيته .. ولكني شعرت أن رؤيته تعيد إلى ذهني تلك الذكرى المؤلمة من جديد .. فلم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له متهاكماً :

- أما زلت تستخدمون تلك الطرق الخداعية في علاج المرضى ؟

- أجبني الرجل في تسامح واضح :

- أعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر فضل هذه الطرق الخداعية يا أستاذ (مدحت) .

- لا .. لا أنكر بالطبع .. إن لها فضلاً عظيماً .. لذلك سأكتب لك الآن شيكاً بالمبلغ الذي تحدده .. إنه أقل شيء أقدمه مقابل أفضالكم العظيمة عليّ .

- إن عداؤك غير عادل يا نصير العدالة .. ومع الأسف أقول : إنني أرى أنك لم تشفِ تماماً .
وأغلق الباب خلفه ، في حين ظللت للمحظات أفكر في كلماته ، ثم ما لبثت أن عدت أغرق نفسي في العمل من جديد .

...



كما أنني سأكتب شيكاً آخر إلى طبيبتكم البارعة ..
آسف .. أقصد ممثلكم البارعة (عبير) .. فقد قامت بالدور
الأكبر في تمثيلتكم الإنسانية .

وقابل الرجل انفعالي الساخر بهدوئه المعتاد ، وقد
نمت ملامح وجهه عن أمارات الأسى والألم ، قائلاً لي
بنبرة حزينة :

— أعتقد أن (عبير) لن تكون بحاجة قط لشيكائك .

— لماذا ؟ لأنها تسمو بأهدافها النبيلة فوق المال .

— لأنها ماتت أمس !!

ووجدتني أتهاك فوق مقعدي من وقع الصدمة ، وقد
انتابني الدهول ، وأخذت أردد :

— ماتت ١٢ عبير ماتت ١٢ غير معقول !

وأجابني الرجل بهدوئه الحزين :

— نعم ماتت .. ماتت دون أن تدع لنفسها الفرصة ،

لتبرئة نفسها أمامك من اتهامك الظالم .

رفضت أن تحصل منك على حكم البراءة ، حتى في
لحظات وداعها الأخير ..

وكنت لم أزل أردد وأنا غير مصدق :

— عبير !! عبير ماتت !!

— أستاذ (مدحت) .. اسمعني جيداً .. أنت تعلم أن
القاعدة التي وضعناها بالنسبة للدار ، هي الاحتفاظ بالأسرار
الشخصية للنزلاء ، وعدم إطلاع الغير عليها ، لأي سبب
من الأسباب .. ما دامت هذه هي رغبة النزيل .

ومع ذلك فقد كنت مستعداً لخالفه تلك القاعدة
للمرة الأولى وإطلاعك على ذلك السر الذي أخفته عنك
(عبير) ، ورفضت أن تعرفه عنها ، لولا إصرارها وتوسلها
لي بالمحافظة على هذا السر .. أما الآن ، وقد غادرت الدنيا ،
فلأتى أعني نفسي من الاستمرار في الحفاظ على هذا السر .
إن ما لا تعرفه عن (عبير) ، هو أنها قد جاءت إلى هذه
الدار منذ ثلاث سنوات ، بعد أن أكد لها الأطباء أن تلك
السنوات الثلاث هي كل ما تبقى لها من الحياة .

فقد أصيبت بمرض خبيث استشري في جسدها ، ولم
يعد هناك أمل في علاجه ، أو الشفاء منه .

ولم يعد لدى الأطباء ما يقدمونه إليها ، سوى بعض
المسكنات ، التي توقف الآلام الرهيبة لذلك المريض .

وقد أعقبت تلك الصدمة العنيفة .. فجميعتها برحيل
زوجها ، وابنها عنها فقصه ذلك الرحيل كانت حقيقة ،
ولم تكن كاذبة كما أخبرتك ، وكان كل ذلك كافياً ،
لكى تسلم نفسها للانهار واليأس ، وهى تنقم على تلك الدنيا
التي أتت إليها .

إنسانه غيرها كان يمكن أن تستسلم للأحزان ، تقتلها
قبل أن يفتك بها مرضها الخبيث .

ولكنها لم تستسلم ، بل أرادت أن تستغل السنوات
الثلاث الباقية من عمرها فى إسعاد الآخرين .

أرادت أن تمد يدها بفعل الخير إلى من محتاجونه ، قبل
أن ترحل عن الدنيا .

فجاءت إلى دار القلوب المعذبة ، لتفنى بها البقية
الباقية من عمرها وسط غيرها من البؤساء ، الذين أرادت أن
تسعدهم ، وتساعدهم ، برغم أنها كانت أحوجهم إلى
المساعدة .

لم تكن طيبة معينة بالدار كما أخبرتك .. ولكنها

كانت ملاكاً ، ينشر رحمته على أولئك المعذيين ، الذين
رأيتهم فى الدار ، وكنت واحداً منهم .

وظلت تؤدي دورها النيل ، حتى اللحظات الأخيرة
من عمرها القصير ، قبل أن تودع هذه الدنيا .

وأخذت الدموع تنسال على خدى ، وأنا أهز رأسى
أسفاً وندماً .

فيما تابع الرجل حديثه ، قائلاً دون أن يعبا بدموعى :
- بقى شيء واحد لم تعرفه ، وأصررت (عير) على
إخفائه عنك ، وهو أنها قد أحبتك فعلاً .

أحبتك بكل ذرة فى كيانها المريض .

لم تكن بالنسبة لها إحدى الحالات الإنسانية التى تحاول
مساعدها ، ومداواة جراحها ، مثل بقية نزلاء الدار .

بل كنت حبها الكبير ... الحب الذى تسلل إلى
مشاعرها الراحلة ، وقلبها اليائس أمام المرض .

ولكنها كما لم تجسد أمام حبك الذى تسلل إليها سبيلاً
لمقاومته ، كانت تعرف أنها لن تجد أمام قدرها المحتوم سبيلاً
لمعاندته .

فلم تقبل أن تجعلك تشقى بزواجك من امرأة مريضة
مثلها .. أيامها في الدنيا معدودة .

ثم قام واقفاً وهو يمد لي يده بخطاب قائلاً :
— لقد طلبت مني أن أسلمك هذا الخطاب أمس ، قبل
رحيلها بساعات .

...



١٦ - خطاب، ووصية ..

وأمسكت بالخطاب لأففضه وأقرأه بأصابع مرتعشة ،
وأنا أنشج في بكاء حار :

« حبيبي (مدحت) .. حينما تقرأ هذا الخطاب أكون
أنا قد فارقت هذه الدنيا .. إنني أعرفك جيداً حساساً ، تحمل
نفسك بأكثر مما تستحقه .. أريد منك أن تعدني ألا تسلم
نفسك مرة أخرى لمشاعر الندم ، وتتحنى تحت وطأة
عذاب الضمير .

فلم يكن لك يد في كل هذا .. لم تكن تعرف شيئاً عن
مرضى .

وعن ظروفي التي أخفيت عنها عنك خوفاً عليك .

كل ما حدث لم يكن لي ولا لك يد فيه .. لأنها
ترتيبات القدر ، وقد أراد أن يكون كل شيء بيننا على
هذا النحو .. فنحن لا نملك اختيار أقدارنا ولا تغييرها ،
ويجب ألا نبكى على شيء لا نستطيع اختياره ، أو تغييره ،
أو دفعه ..

عليك أن تعدني بأن تظل حريصاً على النجاح الذي
أحرزته ، محتفظاً بشخصيتك الجديدة القوية .. وألا تتخلى
عن روح التفاؤل والأمل .. ذلك الأمل الجميل الذي سعدنا
بتحقيقه معاً ..

ولى عندك مطلب آخر .. إذا استطاعت الأيام أن
تجعلك تلتقي يوماً ما بابني (عمر) ، أرجو أن تقول له : إن
أمه فارقت هذه الدنيا .. وهي لا تجد فيها سوى اثنين :
أنت وهو .

أرجوك أن تحافظ على كل ما طلبته منك من وعود .
ومن يدري قد تتقابل أرواحنا يوماً ما في ذلك العالم
الآخر ، حيث لا خيانة ولا خداع ، ولا مرض ولا فراق ؟
وربما قد نستطيع في ذلك العالم ، أن نحقق ذلك الحلم
الجميل ، الذي لم يمكننا القدر من تحقيقه على الأرض .
(عبير)

وألقيت برأسي على المكتب ، وأنا منخرط في بكاء
عنيف ..



عزيزي (رأفت) .. وحتى اليوم لم أزل أبذل العديد
من المحاولات للبحث عن (عمر) ابن (عبير) ، حتى
أبلغه برسالة أمه ..

كما لم أزل أحرص حتى اليوم على الذهاب إلى قبر
تلك المرأة النورانية ، وأرجع بذاكرتي إلى الماضي .. إلى
لقاتنا الأول ، وكيف بدأ بإهاتني وتجرّيحي لها ، وإلى لقاتنا
الآخر ، وكيف انتهى بنفس الإهانات والتجريح ..
وأنخيل ما بين اللقاءين من ذكريات حلوة .. تلك الكلمات
الرفيقة والنظرة الحانية .. اللهفة في اللقاءات التي كانت
تجمعنا وتلاشي الزمن في اللحظات التي نقضيها معاً ..

العزيمة التي كانت تشحذها في نفسي .. والأمل
والتفاؤل اللذان زرعتهما في روحي اليائسة .
وأعود فأنظر إلى قبرها ، وكأنني أتحدث إليها ،
وأستمع منها :

— (عبير) .. إنني لن أسامح نفسي أبداً على ما اقترفته
في حقك .

— أما أنا فلنني أسامحك من كل قلبي .. لقد أحبتك ،
ومن يحب لا يعرف إلا التسامح .

— لقد قابلت حبك الكبير ، وتضحيتك بالبحرود .
— إنك لم تكن تعرف .. لا تعذب روحى فى السماء
بعذابك على الأرض .. هل نسيت وعدك ؟
ابتسم للحياة ، وأقبل عليها ، بكل ما زرعناه معاً من
تفاؤل ، وأمل وعزيمة .. أرجوك يا حبيبى .. لا تخلف
وعدك ..

ووجدتنى أردد لنفسى :
— أعدك .. أعدك بذلك يا حبيبة عمرى .



عزيزى (رأفت) .. هكذا يا صديقى كانت نهاية
قصتى معها .. وذلك هو دورها العظيم فى حياتى .
ومهما حييت .. فلن أنسى طوال عمرى ذلك الملاك
المعذب ، فى صورة امرأة لم تعرف فى عمرها القصير على
هذه الأرض ، سوى أن تكون مثلاً حياً للتضحية ،
وإنكار الذات ...



[تمت بحمد الله]

● العدد القادم ●

يا قلب لا تغفر ..

فقدت (هويدا) شقيقها فى حادث سيارة ، ويتضح
أن والد قائد السيارة من الشخصيات البارزة ، مما يعاونه
على استئجار شخص يعترف بالحادث زوراً .. وتصر (هويدا)
على الانتقام من القاتل الحقيقى ، ولكنها تقع فى حب
شقيقه (طارق) ، وهنا يبرز صراع قوى فى أعماقها ..
أنغفر لقاتل شقيقها من أجل حبها ؟ .. أم تسعى للانتقام ،
وتأمر قلبها ألا يغفر ؟
أختار الحب أم الانتقام ؟

المؤلف



أ. شريف شوقي

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

هي في حياتي

أعرض (مدحت) لصدمة
عاطفية حادة زلزلت كيانه ،
وكادت تعصف بحياته ، لولا أن أرسل
القدر في طريقه ملاكاً رفيقاً في صورة امرأة
استطاعت أن تنشله من وهدة اليأس إلى ضروء
التجراح .. ولكن ما هو المصير الذي
ستؤول إليه علاقتهما .. تلك
العلاقة التي نسجت خيوطها من
نسج الحب والألم ؟

التمن في مصر
وما يعادل دولاراً أمريكياً في سائر
بقية العالم